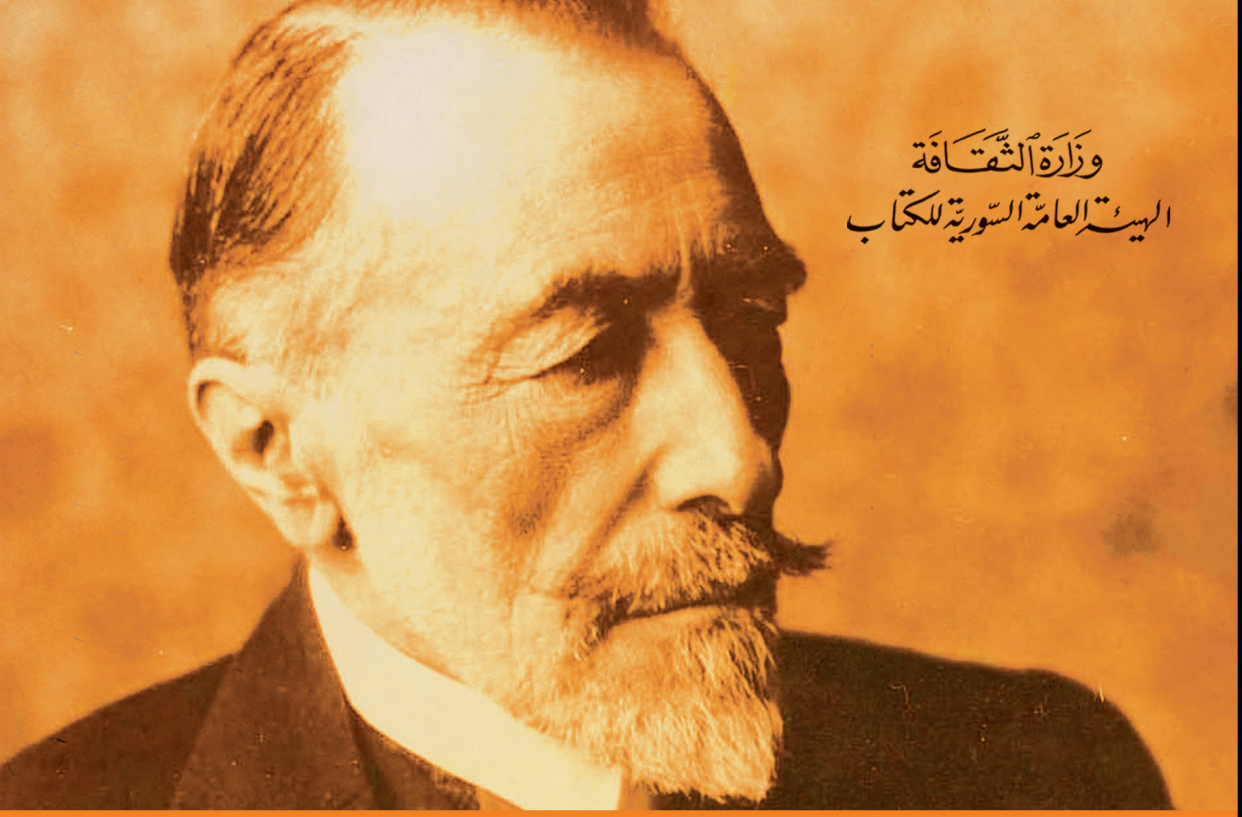

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

جوزيف كونراد

سيرة موجزة

تأليف: غافين غريفيث
ترجمة: توفيق الأسدي

٦
أعلام الأدب العالمي

-

الهيئة العامة السورية للكتاب

جوزيف كونراد

سِيرة موجزة

تصميم الغلاف

خالد يزبك

الهيئة العامة السورية للكتاب

جوزيف كونراد

سيرة موجزة

تأليف : غافين غريفيث

ترجمة: توفيق الأسدي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢ م

العنوان الأصلي للكتاب:

Brief Lives:
Joseph Conrad

Gavin Griffths

جوزيف كونراد: سيرة موجزة / تأليف غافين غريفيـــث ؛ ترجمـــة : توفيق الأسدي .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ١٢٨ ص؛ ٢٤سم.

(أعلام الأدب العالمي؛ ٦)

١- ٩٢٨ : كونراد، جوزيف غ ٢- العنوان ٣- غريفيث
٤- الأسدي ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

أعلام الأدب العالمي
«٦»

١ – بولنـدا

(١٨٥٦-١٨٧٤)

«وأرى خليجاً، خليجاً عريضاً، صقيلاً كالزجاج ومصقولاً كالجليد، يومض في العتمة. هناك نور أحمر يشتعل في البعيد فوق ظلام الأرض، والليل لطيف ودافئ. ندفع المجاديف بأذرع متألمة، وفجأة هاهي هبة ريح، هبة واهية وفاترة ومحملة بروائح غريبة من الأزهار، من الغابة العطرة، تخرج من الليل الساكن: التنهيدة الأولى للشرق على وجهي. لا أستطيع نسيان ذلك. كان أمراً لا يدرك بالعقل وفاتناً، مثل السحر، مثل وعد مهموس بمتعة غامضة».

من "الشباب"

كانت قصة كونراد القصيرة "الشباب" شبه سيرة ذاتية. وحين بحث "ريتشارد كيرل" صديقه وناقده في هذا الأمر اكتشف الحقائق وراء القصة: كان كونراد في حالة استثارة شديدة. وقد سرّ كيرل حين اكتشف أن مكان الوصول النهائي كان "مونتوك"[1].

أجاب كونراد:

«الفقرة التي اقتبستَها عن "الشرق في مواجهة الراوي جيدة في حد ذاتها. وبما أنها مرتبطة مباشرة بمونتوك، فهي تصبح لا شيء إطلاقاً. مونتوك حفرة ملعونة دون أي شاطئ ودون أي روعة... لذلك فهذه الفقرة

---

(١) مونتوك: مدينة أندونيسية. (المترجم)

حين تثبت على بقعة محددة، لا بد وأن تبدو وكأنها ناقصة: كشيء مزيف. ومع ذلك فهي صادقة».

إن حقائق حياة كونراد استثنائية بما فيه الكفاية: شخص بولندي منفي برغبة منه أصبح قبطاناً بحرياً تجارياً بريطانياً، ثم هاهو يحول نفسه إلى واحد من أعظم الروائيين "الإنكليز" في القرن العشرين. ولكن كونراد لم يكن ليحجم عن إضفاء الروعة على الوقائع في محاولاته للوصول إلى الحقيقة الشعرية. ليس من السهل فك لفّات خيط الغزل. إن حياة كونراد محيرة بقدر ما هو فنّه.

ولد جوزيف كونراد باسم "يوزف تيودور كونراد كوجينوفسكي" في الثالث من كانون الأول (١٨٥٧) في برديتشوف في أوكرانيا البولندية. منذ عام (١٧٩٥)، لم تعد بولندا دولة مستقلة بعد أن تقاسمتها النمسا وبروسيا وروسيا. كانت برديتشوف في المنطقة الواقعة تحت حكم روسيا وولد كونراد كمواطن روسي خاضع في وقت لاحق نوعاً ما إلى خدمة عسكرية لمدة خمس وعشرين سنة.

كان والدا كونراد كلاهما منخرطين في مختلف الحركات الرامية إلى الاستقلال السياسي. كان أبولو كوجينوفسكي شخصاً من أهل الحسب (جنتلماناً) من طبقة ملاك الأراضي (شلاختا)، شاعراً ثانوي الأهمية، ووطنياً، ورجلاً صادق النية. ولكنه كان في الوقت نفسه من النوع الحالم. وفوق هذا كله كان مثقفاً ترجم شكسبير وهوغو ليحقق دخلاً إضافياً.

كانت والدة كونراد من منزلة اجتماعية مساوية، إنها "إيفا بوبروفسكي" الذكية واللطيفة والتي تكاد تكون قديسة حسب كل الروايات. وبينما أثار آل كوجينوفسكي الكثير من المشاكل مع الروس، وقد كوفئوا على ذلك بأن صودرت معظم أراضيهم، كان آل بوبروفسكي أكثر حيطة وكداً وحكمة. لقد روّج "تاديؤش" خال كونراد هذا المأثور بحماسة وكان في ذلك مقصراً عن الواقع.

وجد أبولو بعض الصعوبة حتى استطاع الزواج من إيفا. فلم يكن لديه على أي حال الكثير مما يمكن أن يزكّيه. كان يكبرها باثني عشر عاماً. وكما قال تاديؤش:"كان يشتهر بكونه شديد القبح والتهكم. في الواقع لم يكن هو جميلاً ولا وسيماً جداً..." كما لم تكن إمكاناته المالية كبيرة. ونتيجة لذلك كانت لدى والد إيفا فكرة واضحة مفادها أن يقود أبولو ليعرّفه على مختلف الضياع الريفية على أمل أن يعجب بشابة أخرى. لم تنجح هذه الحيلة واضطرت العائلة في النهاية إلى قبول هذا الصهر ذي الموثوقية المشكوك بها.

لدى ولادة كونراد، ألّف أبولو قصيدة مزجت الاحتفال الشخصي بسلسلة من الشعور الوطني الكئيب:

«ليباركك الله يا ابني الصغير

كن بولندياً! رغم أن الأعداء

قد يغرونك

بشبكة من المتعة

تبرأ منها كلها – أحبب فقرك.

نم يا طفلي!»

انقسمت المجموعات البولندية السياسية إلى نصفين في هذه المرحلة. "البيض" الذين كانوا "تدريجيين" يشعرون بأن التفاوض مع القيصر الروسي سيؤدي إلى تحرر أكبر. كانوا يؤمنون بالعملية السياسية.

أما "الحمر" فكانوا أقل تفاؤلاً، فهم ثوار في جوهرهم. في الجناح المتطرف منهم كان هناك الذين يتبنون العنف. كان أبولو وسطياً، أي أنه أيد بل ونظم الاحتجاجات بالفعل. كان "الحمر" هم الذين نظموا أنفسهم في "اللجنة المركزية الوطنية" السرية التي أعلنت لاحقاً العصيان الشهير (المحكوم بالفشل) وذلك في ٢٢ كانون الثاني (يناير) من عام (١٨٦٣). قبل ذلك، كان قد سبق

لأبولو أن اعتقل بسبب عدد من التهم غير ذات الصلة بما في ذلك "أنه تسبب، مع آخرين، في الاضطرابات التي جرت في شارع مودوفا وفي "دكان فيدل للكعك والقهوة"، وتنظيم جُناز لأولئك الذين قتلوا في مظاهرات عام (١٨٦١). ويقال إن إيفا قد ثبتت عقداً على هيئة ورود سوداء على المشاغبين الذين شاركوا في الحداد. ورغم أن أبولو أنكر التهم مبدئياً، إلا أنه وافق على توقيع اعتراف لوضع حد للهراء الكئيب لهيئة المحكمة. وقد تورطت إيفا لأن رسائل ذات طبيعة تدعو إلى الريبة وجدت مكتوبة بخط يدها.

كانت السلطات الروسية ترتاب دون شك بأبولو بأكثر مما استطاعت أن تبرهن عليه بالدليل، أو مما كانت مستعدة لنشره على الملأ. ونتيجة لذلك، نفي أبولو وإيفا بالنتيجة إلى منطقة نائية من روسيا، تسمى "فولغادا". كان كونراد في الرابعة من عمره.

خلال تلك السفرة، وقع كونراد فريسة للمرض. رفض أبولو متابعة السفر وقد نالت مقاومته السلبية الامتعاض من قبل السلطات التي صنّفت قلقه على صحة ابنه على أنه إفراط في تغليب العاطفة. وكما كتب أبولو لاحقاً: "كان القرار قد اتخذ بأنه طالما أن الطفل يولد ليكون مصيره الموت في النهاية، فإن السفرة يجب أن تستأنف على الفور."

كان مناخ فولغادا غير صحي إلى حد عدائي. كان فيها فصلان في العام: "شتاء أبيض وشتاء أخضر. يدوم الشتاء الأبيض تسعة أشهر ونصف الشهر، والأخضر شهرين ونصف الشهر."

سرعان ما مرضت إيفا وابنها. ونتيجة لذلك نقلت الأسرة في النهاية إلى مناخ ألطف في "تشيرنيخوف" إلى الشمال الشرقي من كييف. ولكن ضرراً لا يمكن علاجه كان قد سبق له وحصل. كانت إيفا تعاني من سلّ في حالة متقدمة. في ١٨ نيسان (أبريل) من عام (١٨٦٥)، توفيت إيفا في سن

الثانية والثلاثين، وتركت لأبولو مهمة رعاية طفل في السابعة من عمره مريض بشكل مزمن. كان كونراد سيكتب فيما بعد: «لا أكاد أستطيع تذكرها ، ولكن مما سمعته عنها... فلا بدّ أنها كانت امرأة ذات مزايا غير عادية من حيث ذهنها وروحها.».

أصيب أبولو بالاكتئاب. وكان على الدوام عرضة لنوبات من وجدٍ صوفيّ، فقد خسر أسلوبه التهكمي واستبدله بتظاهر مرضي بالتدين: "أعرف أني لم أعان ولن أتمكن من أن أعاني كما عانى (مخلّصنا)، ولكني على أي حال مجرد كائن بشري. لقد أبقيت عينيّ مثبتتين على الصليب وبتلك الوسيلة دعمت روحي الخائرة ودماغي المترنح."

ما كان ممكناً لحياة كونراد أن تكون مترعة بالكثير من المتعة. لقد وجد نوعاً من الهروب في المطالعة. التهم بالبولندية والفرنسية ترجمات لكتب المغامرات، وولتر سكوت وفينيمور كوبر[1] وكابتن ماريات[2] وتشارلز ديكنز ونسخة موجزة من "دون كيخوته". كما قرأ ترجمة أبيه لرواية "عمال البحر" لهوغو ومسرحية شكسبير "سيدان من فيرونا". وقد انغمس في قراءة الشاعرين الرومانسيين البولنديين، ميتسكيفيتش وسووفاتسكي. من الصعب التركيز على نحو كاف على تأثير هذه التعرض المكثف للأدب الخيالي على كونراد: رغم أن أبولو كان حسن النية وواعياً بمسؤوليته، ومما رواه كونراد فلم يكن أبوه طيب الصحبة. كما أن أبولو نفسه أقر بذلك: "أعلّمه وأطلب منه الكثير والصغير لا يرى أحداً سواي ويغرق بعمق في الكتب." وقد صدر هذا الكلام عن شخص مثقف جداً في مجال الأدب.

---

(١) فينيمور كوبر (١٧٨٩-١٨٥١) روائي أمريكي كان ذا شعبية كبيرة في القرن التاسع عشر. من أشهر رواياته "آخر الموهيكان". (المترجم)

(٢) لكابتن ماريات: (١٧٩٢-١٨٤٨) ضابط في البحرية البريطانية وروائي. من أشهر رواياته للأطفال "أطفال الغابة الجديدة". (المترجم)

استمر كونراد في المعاناة من المتاعب في كليته، وهناك ذكر لـــ "نوبات". ورغم أنه أرسل ليقيم مع مختلف الأقارب، إلا أن صحة كونراد بقيت مضطربة. في هذه الأثناء كان أبوه قد أصيب بالسل وكان يحتضر بسببه.

سمح لأبولو بالسفر بعيداً عن البيت، فخطط لنشر ترجمته لمجموعة من أعمال فيكتور هوغو المسرحية وديواناً يضم قصائده ورواية طويلة عن المجتمع البولندي وذلك ما بين عامي (١٨٥٤) و (١٨٦١). وقد استعاد بعضاً من روح الفكاهة القديمة حين قال:"معظم الوقت أنا مستعد للسقوط، ومع ذلك فأنا مستمر في المحاولة." ومن جديد راح يتحدى المحتوم. أبدى أبولو ذلك النوع الخاص من البطولة التي كان كونراد سيتمعن فيها طوال حياته، سواء كبحّار أو ككاتب. توفي أبولو في ٢٣ أيار (مايو) من عام (١٨٦٩). كان كونراد في الحادية عشرة من عمره. في مقدمته لمذكراته "سجل شخصي" كتب عن أبيه:" بالنسبة إلى رجل ذي إيمان قوي كإيمانه لم يكن الموت عدواً له." كان الإيمان سياسياً بقدر ما هو ديني.

كانت جنازة أبولو مناسبة عظيمة، وتطورت لتتحول إلى احتفالية وطنية. سار كونراد على رأس الموكب: "استطعت أن أرى مجدداً الصبي الصغير في ذلك اليوم وهو يسير خلف نعش؛ كانت هناك مساحة تركت فارغة وسرت فيها وحيداً؛ واعياً بوجود الكثير ممن يتبعونني. لقد خرج نصف السكان في عصر ذلك اليوم الصافي من أيام أيار (مايو).

سُلم كونراد الآن إلى خاله، تاديؤش. كان على نقيض كبير مع أبولو وإلى حد لا يمكن تصوره. كان تاديؤش شخصاً لطيفاً دون شك، وكان اهتمامه بشؤون ابن أخته كريماً. كما كان قليل الكلام أيضاً كما توحي رسائله مع رتابة لا ترحم، فقد كان ميالاً إلى التعبير بلغة مشددة على ما هو جليّ وبديهي. وكانت هناك صفة أخرى له صعّبت عليه التعامل مع مراهق، ألا وهي ميله نحو ادعاء الصلاح للنفس، وهو ما كان يمكن أن يتقسى ليصبح طغياناً واعظاً. وقد بقي ذا

تأثير دائم على حياة كونراد الذي كان يتحدث دائماً عنه باحترام، وإن لم يكن بمودة. كانت أولى رسائله إلى كونراد، بعد وفاة أبيه، تحدد الأسلوب. ويستحق الأمر أن نبقي في ذهننا أن كونراد كان في الثانية عشرة حين ذُكّر بما يلي:

«*بدون تعليم محكم لن تكون شيئاً في هذا العالم، ولن تكون أبداً مكتفياً بذاتك... لذلك ليس ما هو سهل وجذاب يجب أن يكون غاية دراستنا بل ما هو مفيد، رغم أن هذا صعب في بعض الأحيان على الشخص الذي لا يعرف شيئاً بشكل جوهري، والذي لا يتمتع بنواحي القوة في شخصيته ولا قدرة على التحمل، والذي لا يعرف كيف يعمل وحيداً ويوجه نفسه، والذي يتوقف عن أن يكون إنساناً ويتحول إلى دمية لا فائدة منها*».

هذه المبادئ تبدو وكأنها تلخيص أخرق لموضوعات كونراد الروائية لاحقـــاً.

لا نعرف الكثير عن التعليم الرسمي الذي تلقاه كونراد أو ما إذا كان قد تمكن من مصادقة الكثير من الرفاق. هناك اسمان، والاقتراح العرضي بمغازلة شقيقة زميل له في المدرسة. بدا وكأنه تحمّل مزيجاً تصادفياً من التعليم في المدرسة والدروس الخصوصية. وفي وقت لاحق من حياته زعم كونراد أنه دخل ثانوية سانت آن في مدينة كراكوف. لا سجلات تؤكد هذا الزعم. من الواضح أنه كان يحاول أن يفك عقدة صعبة أخرى في حياته. وعلى أي حال، فهو لا يبدو وكأنه قد أخذ دراسته بجدية مخصوصة، رغم أنه كان يستمتع بدروس الجغرافية... والسيجار بين الحين والآخر.

إنه لأمر مغر أن يصعب المرء على نفسه تفسير قرار كونراد بالذهاب إلى البحر وذلك في أحد أيام عام (١٨٧٢)، ولم يقاوم سوى القليل من النقاد وكتاب السيرة هذا الإغراء. وهذا خطأ يتحمل كونراد وزره: ففي وقت لاحق من حياته كان حريصاً على الإصرار على أن تحوله إلى بحّار كان جزءاً من

قدره. كما كان عليه أن يدافع عن نفسه من تهمة التخلي عن وطنه من أجل طموح تافه. ولكنه كلما كان يدافع بعظمة عن نفسه، كلما كان يبدو أقل إقناعاً:

«لماذا كان عليّ أن ألتزم بملاحقة الوجبات الفانتازية من القمامة المملّحة والسير الشاق بالمراكب في البحار الواسعة؟ إن جزءاً مما هو غير قابل للتفسير يجب أن يفسح له المجال لتقييم سلوك الناس في عالم ليس فيه تفسير نهائي».

لا يوجد سبب واحد يفسر هذا القرار، ولكن من السهل أن نرى لماذا كان للفكرة، ما أن طُرحت، عناصر جذب لكل من كونراد وتاديؤش. في البداية كان كونراد في حاجة إلى هواء نقي حرفياً ومجازياً. لقد عانى من وفاة أبويه كليهما ومن المرض المزمن. وبما أنه كان شخصاً جريئاً وشديد الحساسية، فقد أراد أن يهرب من قبضة تاديؤش وأسرة أمه. أي ببساطة أكبر فإنه برأسه المحشو بكتب وولتر سكوت وفينيمور كوبر وماريات، فقد كان في حاجة إلى المغامرة - وفي السادسة عشرة من عمره - لم يكن من المحتمل أن يختار طوعاً مهنة آمنة في مجال القضاء أو الخدمة المدنية. والضغوط الأخرى يمكن أن تشمل الحاجة إلى أن يكتسب جنسية بلد آخر ليتجنب الخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش الروسي، والثقة بأنه لن ينسجم قط مع فكرة آل بروبوفسكي عن "حياة عاقلة ومعقولة".

أما بالنسبة إلى تاديؤش، فإن أي علامة تدل على الاستقلال تصدر عن ابن أخته كانت موضع حماسة كبيرة. كان كونراد دون شك مراهقاً صعب المراس غير متعاون وغير ملتزم إطلاقاً. كما كان قد كلّف العائلة وتاديؤش (على وجه الخصوص) الكثير من النقود دون أن يبدي امتناناً على ذلك. كما علينا أن نتذكر أنه لا تاديؤش ولا كونراد نفسه كانا يتنبآن بأن الفراق سيكون دائماً. ربما اعتقدا كلاهما أن الفكرة سوف تتلاشى بعد ستة أشهر من العبث على المراكب.

٢- فرنسـا

(١٨٧٤- ١٨٧٨)

في تشرين الأول (أكتوبر) من عام (١٨٧٤)، غادر كونراد، الذي لم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره بعد، بولندا إلى مرسيليا. بالطبع قد يكون شعر ببعض الأسى عند الرحيل، وبألم الحنين إلى الوطن. ومن المرجح أنه بسبب فتوته، فقد كان يتطلع إلى تجارب جديدة.

وقد مرّ بالكثير من التجارب. من أوائل من قابل من الناس في مرسيليا كان "بابتيستان سولاري" المكلف برعايته. وما كان يمكن للتباين مع تاديؤش ومع الوصاية العتيقة الطراز لجدته إلا أن يكون تبايناً في الحد الأقصى من القسوة:

«*كنت ما أزال نائماً في حجرتي في حوصل السفينة المتواضع قرب رصيف الميناء القديم، بعد تعب الرحلة عبر فيينا وزيوريخ وليون حين اقتحم المكان (بابتيستان) وهو يفتح مصراع النافذة بعنف أمام شمس بروفانس ويؤنبني بصخب لأني كنت مما أزال في الفراش*».

هاهنا عالم جديد من النور والطاقة واللهو. لقد استبدل بكآبة آل بوبروفسكي النشاط المرح لبحارة بروفنسال الأشداء:

«*وقد انقضت نهارات وليال كثيرة أيضاً، أنفقتها مبحراً مع هؤلاء الرجال الخشنين الطيبين الذين بدأت معرفتي بالبحر تحت رعايتهم... كانت تتركز على طفولتي البحرية وجوههم التي لوّحها البحر، وجوه ملتحية أو حليقة، نحيلة أو*

ممتلئة، مع عيني الربان البحريتين والمصممتين والمجعدتين، وهنا وهناك حلقة ذهبية مستديرة رقيقة في شحمة أذن مكسوة بالشعر، وقد انحنت فوق طفولتي البحرية... وقد دعيت إلى الجلوس في أكثر من منزل عال معتم من المدينة العتيقة على موائدهم السخية، وتناولت حساء السمك الذي يصب في طبق سميك من قبل زوجاتهم ذوات الأصوات العالية والجباه العريضة. كما تحادثت مع بناتهم ... فتيات قصيرات وبدينات لهن بروفيلات نقية وكتل رائعة من الشعر الأسود المرتب بفن معقد وعيون داكنة وأسنان بيضاء مبهرة».

هذا المقطع المقتبس من كتاب "سجل شخصي" مثقل بتفاصيل حسية وصريحة: وجوه البحارة والطعام والفتيات، وكان هذا أكثر مما يتحمله كونراد. لا شك أن المؤلف الكهل يتذكر كيف تعرفت ذاته المراهقة لأول مرة على متع الاستقلال ببهجة مترعة بالتحرر.

من المريح أن نتخيل كونراد وهو يأكل ويشرب ويلقي النكات ويمارس الجنس. ولسوء الحظ، فإن الدليل على ما جرى فعلاً في مرسيليا يجب أن يُستنتج من النزر اليسير من المعلومات المبنية على وقائع. لقد كان من دأب كونراد نفسه أن يضفي رومانسية على هذا الجزء من حياته أكثر من أي جزء آخر، مصوراً نفسه على أنه بحار جوال شاب عنتري منخرط في تهريب السلاح والنشاط السياسي السري.

فيما يتعلق بالشراب والجنس، لم يظهر كونراد أي إفراط في تعاطي أي منهما. لا يوجد شهود على أنه ثمل ذات مرة. وبالفعل لو أخذنا في الاعتبار أنه كان بحاراً، إلا أنه أبدى ميلاً في حياته لاحقاً إلى التعفف المحكم عن تناول المسكرات. أما فيما يتعلق بالجنس، فإن تحفظ كونراد في هذا الموضوع يجعل من كتابات هنري دجيمز تبدو وكأنها استعراضات طنانة. وبمعزل عن زوجته المستقبلية لا يوجد دليل على أنه نام مع أي امرأة أخرى.

ومع ذلك، فإن صورة فوتوغرافية التقطت له عام (١٨٧٣) تظهر شاباً لافتاً للنظر بملامح غريبة وجيدة. الشعر الأسود ممشط نحو الخلف، والتعبير هو مزيج عجيب مما هو ثاقب وحالم، والصورة كلها تنفث وجوماً اقتحامياً. من الصعب أن نصدق أنه بعيداً عن وطنه ومع وجود إغراء كل ذلك الشعر الأسود والأسنان المبهرة ، أن يكون قد مارس العفة.

ما هو موثّق هو أنه كان في عوز للنقود وبقي كذلك. ورغم أنه حضّر نفسه للذهاب إلى مرسيليا لكسب قوت يومه، إلا أن تاديؤش كان يزوده (واستمر في ذلك) بمنحة جيدة تبلغ ألف فرنك في العام. وحتى نعرف معنى ذلك فقد كان كونراد يتلقى عن أول عمل له راتباً يبلغ (٣٠) فرنكاً في الشهر. وخلال السنوات القليلة التالية كان كونراد ينفق ما يزيد على ما يحصل عليه، وهاهو مثال نموذجي عن إحباط تاديؤش المعقول:

«*ربما يبدو لك أني أستطيع تحمل مثل هذه النفقات الاستثنائية بسبب ودّي لـــ "ابن شقيقتي المحبوب جداً"، أليس كذلك؟ ولكن الأمر ليس هكذا... لو كنت سأعطيك (٣٠٠) روبل أكثر في العام .... لكنت سأخفض من نفقاتي على ملابسي الداخلية وأحذيتي وثيابي وحاجاتي الشخصية... من العدل أن أصلح هذا الطيش من جانبك على* حساب رفاهيتي الشخصية أو عليّ بالأحرى القول إنها حاجاتي الأساسية».

ورغم أن كونراد ما كان يشعر بالارتياح في نفسه، إلا أن "مدّ" نفقاته ارتفع أكثر فأكثر مع عواقب كادت تكون مميتة. أحد التفاسير هو أنه بسبب أن كونراد كان ينظر إلى نفسه كـــ "شلاختا" فقد رفض أن يتنازل عن معاييره فراح يطلب أفضل الملابس والسكن المكلف والطعام الفاخر والسيجار الممتاز. وعلى الرغم من ذلك، من الممكن أيضاً أنه كان يخسر النقود إن لم يكن في القمار ففي مشاريع تجارية هوجاء، حيث أن تاديؤش أنكر بشدة أن كونراد كان مقامراً.

خلال شهرين من وصوله إلى مرسيليا انطلق كونراد في أول رحلاته البحرية على السفينة "مون بلان" (الجبل الأبيض)، في مركب شراعي صغير حمولته (٤٠٠) طن ويتألف طاقمه من حوالي اثني عشر رجلاً. صعد إلى متن القارب في الثامن من كانون الأول (ديسمبر) وأبحر في الخامس عشر منه نحو "موستيك"[1] ووصلت إلى غايتها في ١٥ شباط (فبراير) من عام (١٨٧٥). كان مجرد مسافر مهمته أن يراقب العمل قبل أن يصبح بحاراً متدرباً. وربما في هذه الرحلة أو التالية، وحين هبط في ميناء "سان بيير"، زار كونراد (للمرة الوحيدة في حياته) شاطئ أمريكا الجنوبية (فنزويلا وكولومبيا)، مسرح أحداث روايته الملحمية "نوستروموا".

ربما يكون أمراً بديهياً إلى حد السخف أن نشير إلى أن كونراد كان يتمتع بقدرة مدهشة على تعلم اللغات. ورغم أن أبولو علّمه الفرنسية منذ نعومة أظفاره، فإن الفرنسية التي تلقنها ما كانت ستساعده على التحادث مع البحارة الذين كانوا رفاقه الوحيدين على "مون بلان". إن لهجة أهل مرسيليا تلفظ من الأنف بشكل خاص وعصية على الفهم، أما عاميتها فهي مستغلقة على الفهم.

لدى عودته إلى مرسيليا تابع الإنفاق. كان مالكا "مون بلان"، المسيو ديليستانغ، وهو شخص "ملكيّ محنّط ومجمّد"؛ وزوجته، وهي امرأة "مستبدة" ذكّرت كونراد بشخصية "الليدي ديدلوك" في رواية "المنزل الكئيب" لتشارلز ديكنز، فكانا يتحركان ضمن دوائر "عالية المقام" نسبياً، وراح كونراد يتحرك معهما. وقد أخذ استراحة بعد رحلته التي دامت سبعة أشهر في البحر، للتردد على المسرح ودار الأوبرا. أحب كونراد أوبرا "كارمن" لبيزيه وكان نموذج الحسناء المتوسطية النارية والمثيرة سيلازم كثيراً من محاولاته اللاحقة الرامية إلى حقن "الحكايات الرومانسية" عتيقة الطراز في قصصه.

---

(١) موستيك: جزيرة صغيرة في البحر الكاريبي. (المترجم)

ومع ذلك فهو يبدو وكأنه قد تجاوز الصعاب رغم وجود ساعات بل حتى أيام من الوحدة والعزلة. ومن خلال ديليستانغ تعرف على الكورسيكي ابن الثانية والأربعين عاماً المسمى "دومينيك سرفوني" الذي أبحر أيضاً على سفينة كونراد التالية "سانت أنتوان".

كان سرفوني ذا شخصية قيادية "كارزمية" وأصبح النموذج للبطل "نوسترومو":

« *كمنت في عينيه نظرة تدل على السخرية القاسية والكاملة، وكأنه قد زوّد بروح مجربة إلى حد مفرط. وكانت أقل نفخة تمنح وجهه البرونزي مظهر جرأة استثنائية*».

يبدو من الممكن أن يكون كونراد قد وقع تحت سطوة سرفوني، فانخرط في أعمال التهريب في كل من مرسيليا وسواحل أمريكا الجنوبية، ومن جانب آخر، ربما يكون سرفوني قد سحر كونراد بحكايات رومانسية عن تهريب السلاح وأن كونراد استولى على تلك التجارب.

سيصف كونراد لاحقاً كيف هرّب السلاح للمُطالب بعرش إسبانيا "دون كارلوس دي بوربون إي دي أوستريا إستيه". وهذه الحادثة تذكرنا بروايات وولتر سكوت "اليعقوبية": شاب يجد نفسه في بيئة غريبة عليه، ويقع في الحب، ويكرس نفسه لقضية سياسية محكومة بالفشل. وبالفعل فإن نموذج سكوت وثيق الصلة جداً، حتى أن المرء سيشعر بالرغبة التي تحضه على الحدس بأن كونراد قولب تجاربه، مهما كانت، وفقاً لذلك.

يوحي الدليل الوثائقي بأن زعم كونراد بأنه من مؤيدي الحركة الكارلوسية (نسبة إلى دون كارلوس المذكور أعلاه) ما هو سوى تعليل للنفس بالأماني. يكشف أرشيف شرطة مرسيليا الكثير من الأدلة عن النشاط الكارلوسي قبل عام (١٨٧٦)، ولكن لا توجد ملفات ولا تقارير صحفية

للعامين (١٨٧٧-١٨٧٨) حين كان كونراد يتلطى في أنحاء مرسيليا. ما نعرفه أنه لم يتمكن من إتمام رحلة ثانية على "سانت أنتوان" بسبب معاناته من خراج شرجي.

إن لم يكن ذلك كافياً، فقد كان عليه أيضاً أن يتحمل مشاكل بيروقراطية تتعلق بأوراقه الثبوتية. لم يتمكن من أن ينال من القنصل الروسي الإذن بالعمل على متن السفن.

هذه الفترة من حياة كونراد موثقة بشكل طفيف ولكن كونراد نفسه أضفى عليها الكثير من الخيال الروائي. في روايته "السهم الذهبي" نرى البطل على علاقة غرامية مع "ريتا دي لاستوالا" التي افترض البعض أنها لا بدّ وأن تكون شخصية واقعية على نحو ما أو آخر. ولو كانت هناك حكاية غرام في ذلك الحين، فإن شخصية ريتا هذه لا تعطي أي فكرة عمن هي تلك المرأة. إنها واحدة من أضعف الشخصيات التي ابتدعها كونراد، وهي مجرد فانتازيا مستوحاة من شخصية "كارمن" (من الأوبرا الشهيرة)، ولا تحتاج سوى إلى زوج من الصنوج بينما تشق طريقها بغضب عبر الرواية. وأي محاولات لإيجاد صلة لها مع امرأة حقيقية هو مجرد تخمين.

ومع ذلك، يمكن للمرء أن يرتب حكاية ممكنة: يجد كونراد نفسه مجدداً غارقاً في ديون رهيبة، بينما يبدو مستقبله مجهولاً، وهاهو خاله يمارس عليه ضغوطه المعتادة. يشعر بالوحدة وربما تكون صحته معتلة، ولكنه مكتئب بكل تأكيد. وللخروج من هذه الورطة الرومانسية الكثيفة، يختار كونراد طريق الهروب الذي كان الخيار الشائع منذ أن نشر "غوته" رائعته "آلام فرتر" عن الحزن المسهب، ويحاول الانتحار.

ولكنه لم يعترف بذلك قط. وحتى بعد أن أصبح رجلاً عجوزاً نسبياً، وراح يري ابنه جون الندوب، فإنه كان يتقيد بحكاية تورطه في مبارزة:

سيوف البحارة القصيرة وما إلى ذلك. ولو جرت مبارزة حقاً إلا أنه لا يوجد شهود ولا شركاء في الأمر، ولا مبارز معروف يبارزه. وهذه الحكاية الخيالية تتناسب جيداً مع إضفاء كونراد المجد على فترة شبابه، ولكنها لا تتفق مع الرسالة التي كتبها تاديؤش بوبروفسكي إلى ستيفان بوشينكي، وهو صديق قديم لوالد كونراد:

«كنت متأكداً تماماً من أنه كان في مكان ما في جزر "أنتيبودز"[1] حين تلقيت، وأنا منهمك في العمل في "معرض كييف" عام (١٨٧٨)، برقية تقول بالفرنسية: "كونراد جريح، أرسل المال. تعال. " لدى وصولي، وجدت كونراد وقد سبق له وتمكن من السير على قدميه، وبعد حديث مسبق مع صديقه السيد "ريتشارد فخت" ... زرت المخلّ بواجباته. وهذا ما جرى... إن "مكتب التسجيل" رفض [إبحار كونراد] لأنه أجنبي، وفي سن الواحد والعشرين وخاضع للخدمة العسكرية في بلده [روسيا]. وإضافة إلى ذلك، فقد تبين أن كونراد لم يتلق إذناً من قنصله قطّ، حتى أن المفتش السابق لميناء مرسيليا استدعي ليفسر السبب في أنه كتب على اللائحة إن مثل هذا الإذن قد منح له. وقد تلقى توبيخاً وكاد يخسر منصبه... على كونراد أن يبقى على الشاطئ دون أمل في أن يعمل كبحار على السفن الفرنسية. وقبل أن يحدث هذا كله، فقد وقعت مصيبة أخرى على أي حال، وكانت تلك مصيبة مالية».

ويتابع تاديؤش كلامه ليذكر تورط كونراد المحتمل في مسألة مثيرة للظنون قريباً من شواطئ إسبانيا، وكيف أنه حين رغب في "إصلاح أوضاعه المالية"، فقد خسر (٨٠٠) فرنك على موائد القمار في مونته كارلو"، ولكن تاديؤش يتابع فيقول إن ابن شقيقته لم يكن مقامراً:

---

(١) أنتيبودز: جزر بركانية غير مأهولة جنوب نيوزيلندة. (المترجم)

«بعد أن رتب الأمور بشكل ممتاز فقد دعا الصديق المذكور أعلاه (ريتشارد فخت) إلى الشاي. ولكنه حاول قبل الموعد أن يقتل نفسه بطلقة مسدس. (فليبق هذا التفصيل سراً بيننا فأنا قلت للجميع إنه قد جُرح في مبارزة. ولكني لا أريد أن أبقي هذا الأمر سراً عنك). لقد اخترقته الرصاصة قرب القلب دون أن تضر بأي عضو هام من جسمه. من حسن الحظ أنه كان قد ترك كل عناوينه في مكان بارز، فاستطاع السيد فخت إبلاغي على الفور وحتى إبلاغ أخي الذي انهال عليّ بالأسئلة بدوره. هذه هي الحكاية كلها».

توحي دعوة كونراد لصديقه بأنه أراد أن يكتشف أحد ما أمر محاولته الانتحار. ولو أراد أن يقتل نفسه حقاً لأطلق النار على رأسه ليضمن النتيجة.

بالطبع كان كونراد يائساً. ومن جديد كان سيعود إلى قصة الانتحار في رواياته، ليس كوسيلة للهروب بل كتلميح أخير إلى التعب: "غالباً ما يكون الانتحار نتيجة لضعف ذهني مجرد... ليس عملاً من أعمال الطاقة الوحشية إنما العارض النهائي للانهيار الكامل."

هناك تفسير آخر ممكن لحالة كونراد الذهنية كامن في حس الشرف لديه. لا بدّ وأنه شعر بالخجل لأن مغامرته في مرسيليا التي بدأت بداية طيبة قد انتهت إلى ديون وبطالة. وخلال حياته كلها، كان يحمل معه سلوك أرستقراطي صغير وأراد أن يعيش وفق ذلك المفهوم المثالي عن نفسه. وأن يكون قد فشل على هذا النحو العلني، بما في ذلك توريطه لموظفين من مرسيليا، فمن شأنه أن يعذب شخصاً له مزاج بحساسية كونراد ووعيه بذاته. في رواية "لورد جيم" كان سيستكشف العار وتفرعاته الانفعالية المعقدة بحماسة أشبه بحماسة الأطباء الشرعيين.

أنقذ تاديؤش ابن شقيقته، كما كان سيفعل مرات كثيرة في المستقبل. دفع الديون ورتب الأمور التي كانت في حالة من الفوضى، وراح يقدم الاقتراحات لمستقبل كونراد.

كبحار منتظر كان كونراد يحرق من السفن ما يكفي عدّ تصرفه غير حكيم. كان تاديؤش قد شعر بالقلق فيما يخص جنسية كونراد من قبل، فقد كان شبح الخدمة العسكرية في روسيا ما يزال مهيمناً على الشاب ابن الواحد والعشرين عاماً. اقتُرح عليه أن يذهب إلى سويسرا، ولكن هذا ما كان سيعزز من مهنة كونراد كبحار.

كان على كونراد أن يتحرك نحو الأمام بغض النظر عن كونه غير مسموح له بالعمل، فقد كان من المحتمل وجود تعقيدات رومانسية غير محلولة تتلطى في شوارع مرسيليا الخلفية أو مخادعها. كان نيله لوظيفة بحار على سفينة تجارية بريطانية يقدم حلاً ممكناً. وكان كونراد في سنوات لاحقة سيتصرف بحقيقة أن هذه كانت هي الخطوة الجلية مع الأخذ في الحسبان بهاء الأسطول التجاري البريطاني. ربما يكون الأمر هكذا. ومن ناحية أخرى، كانت السلطات البريطانية أقل تدقيقاً في مسألة الأوراق الثبوتية وستقبل به للعمل دون أن يكون مضطراً للحصول على إذن من السلطات الروسية.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

٣ - إنكلترا والخدمة في البحرية التجارية (١٨٧٨- ١٨٨٩)

في ٢٤ نيسان (أبريل) صعد كونراد إلى السفينة "مافيس" التي كانت مبحرة نحو القسطنطينية محملة بالفحم. وفي ١٨ حزيران (يونيو) وصل كونراد إلى إنكلترا فهبط في ميناء "لوستوف". ومن العجيب أنه تدبر الأمور دون أن يتقن اللغة الإنكليزية. لقد زعم أنه لم يكن يعرف الإنكليزية بتاتاً، ولكن يصعب تصديق ذلك. ربما كان قادراً على فهم بعض التراكيب البسيطة والإجابة على بعض الأسئلة بطريقة ما أو بأخرى على الأقل.

ومن المبهج أن نلاحظ أن كونراد كان أخرق كشأنه دائماً. وقد تشاجر مع ربان "مافيس" وأنفق نقوده كلها في لندن، وتلقى مقابل ذلك خطاباً طويلاً من التأنيب من تاديؤش مع الاتهامات المعتادة بأنه "طائش" و"كسول" و"مسرف"، وربما لا يقدر سوى أولئك الذين يتجنبون أداء الواجب والمسؤولية دستورياً المعنى الحقيقي لهذه العبارات. على أي حال، وجد كونراد عملاً على السفينة "سكيمر أوف ذا سي" (مغرفة البحر) المحملة بالفحم والمتجهة من نيوكاسل إلى لوستوف. في هذه المرحلة نراه يبدأ مهنته بجد ويحيا الحياة الشاقة للبحارة: "بدأت أتعلم الإنكليزية من شباب (الشاطئ الشرقي) الذين كانت لكل منهم بنية جسدية توحي بأنها ستدوم إلى الأبد، والملونين كبطاقات عيد الميلاد."

في مرحلة لاحقة من حياته كان سيزعم أنه تعلم الإنكليزية من الصحف، مع شيء قليل من شكسبير يرش فوق المزيج لتخميره. وبعد ثلاثة وسبعين يوماً على "سكيمر" انتقل إلى لندن باحثاً عن عمل جديد:

«ما كان ليوجد مستكشف أكثر وحدة. لم أكن أعرف شخصاً واحداً بين كل هؤلاء الملايين من حولي التي تسكن هذه المسافات الغامضة للشوارع».

في ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ركب سفينة "ديوك أوف سذرلاند" وهي سفينة سريعة لنقل الصوف بطاقم من (٢٣) رجلاً والمتجهة إلى أستراليا.

من الصعب المبالغة بالصعوبات الجسدية والنفسية للحياة كبحار عادي على سفينة تجارية عام (١٨٧٨). كان عمل البحار اليومي يدوم (١٢) ساعة مقسمة إلى سبع نوبات حراسة (يمنع على البحارة أثناءها الحوار) على مدار الساعة. وحين لا يكون البحارة في نوبة حراسة، يتوفر لديهم الوقت لرتق ملابسهم والراحة، ولكن عندما يكون الطقس ملائماً. وكان الطعام رديئاً مع تركيز على اللحم المملّح.

كان على البحارة غسل ظهر السفينة بطبقاتها وتنظيف أعمدة الأشرعة وإصلاح الأشرعة وتوجيه السفينة. كما كانت حجرات الطاقم في حاجة إلى العناية بها. كان العناء والضجر متواصلين: ومن ناحية أخرى، لا بد أن كونراد وجد الروتين ووضوح العلاقات على متن السفينة مريحين. فبالنسبة إلى شخص منفي، متّحد مع حسه بهويته، فإن صراحة التسلسل القيادي ستكون مدعاة للراحة. وعلى العكس من ذلك، فإن عدم توفر الاختلاء والعيش في مكان مزدحم كانا أمرين شديدي الوطأة. من المشكوك فيه أن يكون تاديؤش قد فهم على الإطلاق ما كان ابن شقيقته قد ورط نفسه به.

الطريقة المعتادة لشرح كيف تقدم كونراد في صفوف البحرية التجارية هي بالنظر إلى الأمر كانتصار جليّ في إثر انتصار: كان كونراد بكل تأكيد

حريصاً على أن يُنظر إليه بأسلوب الإطراء هذا. والحقيقة أكثر إثارة للاهتمام. فحين تقدم كونراد بطلبه للعمل كـــ "مساعد ثان للقبطان" عام (١٨٨٠) - كان قد سبق له ومرّ بتجربة كافية كبحار عادي – تورط في عملية غش. فحتى تصل إلى مرتبة مساعد ثان للقبطان في البحرية التجارية البريطانية، عليك أن تكون قد خدمت في البحر مدة أربعة أعوام. لم يكن كونراد قد راكم مثل هذه الخبرة. ومع ذلك، فهو رتب لنفسه، بمساعدة ديليستانغ الذي كان رب عمله في مرسيليا، خدمة خيالية في البحرية الفرنسية تبلغ ثلاثة أعوام بدلاً عن الثلاثة عشر شهراً وخمسة أيام. كان كونراد طموحاً إن لم يكن أي شيء آخر.

وقد نجح في الامتحان ومنح الشهادة المطلوبة. وحتى ينجح في ذلك كان لا بدّ لكونراد أن يكون متقناً للغة الإنكليزية وقادراً على القراءة والكتابة بها إلى حد كاف يمكنه من أداء واجبات وضعه الجديد كضابط، وأن يبرهن على أنه يستحق أن ينال راتباً قدره ثلاثة جنيهات في الشهر. وعلى أي حال، وحتى حين كان يكرس نفسه للبحرية، فقد كان يفكر في أن يعمل كسكرتير للسيد لاسكال، وهو رجل أعمال كندي. خلال حياته كلها، كان كونراد مصمماً وراغباً في تجربة مختلف الإمكانيات لنفسه، وذلك قبل وقت طويل من قراره أن يصبح روائياً "عظيماً".

في تلك الأثناء، كان ما يزال يتطفل على تاديؤش. في إحدى الحوادث العجيبة ادعى كونراد أنه فقد كل أمتعته مع تحطم سفينة "آنا فروست" على الشاطئ وطلب من تاديؤش أن يقرضه عشرة جنيهات. لا يوجد أي سجل لسفينة تدعى "آنا فروست": كانت هناك سفينة تدعى "آني فروست" في ذلك الحين مستأجرة في رحلة حول العالم، ولكن لا يوجد دليل على أن كونراد كان عضواً في طاقمها. وقد أكملت هذه السفينة رحلتها بنجاح.

في ١٩ أيلول (سبتمبر) من عام (١٨٨١)، وجد كونراد وظيفة على السفينة "فالانتاين" تحت قيادة "الكابتن بيرد". لم تكن السفينة ولا الربان من النوع الذي يوحي بالثقة، فكلاهما كانا عرضة للاهتراء والعطب.

وقد تبين أن هذه كانت تجربة كارثية حوّلها كونراد إلى تجربة جيدة في قصته القصيرة "شباب". ورغم أن معظم ما كتبه كونراد من الأدب القصصي في بداياته متجذر فيما رآه ومن تعرف عليه، إلا أنه لم يكن مجرد تسجيل للأحداث. ففي "ملاحظات المؤلف" غالباً ما كان يؤكد على المادة الوثائقية حتى يدفع عن نفسه تهمة المبالغة. وكان بعمله ذاك يشجع كتاب السيرة على تعقب الأشخاص "الحقيقيين" خلف أنماط الشخصيات الروائية. ولكن هذا لم يؤد دائماً إلى تقييم أدق لكتاباته.

قصة "شباب" هي الاستثناء. ففيها يقدم سرداً واضحاً ودقيقاً دون شك لتلك الرحلة البحرية، دون الكثير من المبالغة بالمادة: ويبقى الكابتن بيرد العجوز المسكين في القصة هو الكابتن بيرد دون تغيير للاسم. ولكننا نرى النهاية وقد جرى تمجيدها حتى أن "الشرق" يُشخصن في النهاية كامرأة مغوية معطّرة. أما بقية القصة فتلتزم بالوقائع تماماً: عانت السفينة "فلسطين" "Palestine" من صعوبات قبل مغادرتها ميناء "فالموث"، ولكنها بعد أن أصبحت جاهزة في النهاية أبحرت باتجاه جزيرة "جاوه" دون أي مشكلة، ولكن الفحم اشتعل ذاتياً وانفجر ناسفاً أسطحة السفينة ومقدمة ومؤخر السفينة، بل وحتى أعلى مؤخر السفينة التي غرقت. في القصة وعلى نحو مفهوم بما فيه الكفاية، نسب كونراد إلى ذاته البديلة الشابة (الشخصية المسماة "مارلو") دوراً بطولياً ، فهو يقود زورقاً مكشوفاً لأيام بحالها عبر البحر العدائي. والحقيقة هي أن كونراد أمضى ساعات قليلة قبل بلوغ الشاطئ. لا شك أن تجربته لم تكن على هذا النحو. إلا أن كونراد يريد أن يربط ما بين أول مرة

يشاهد فيها "الشرق" مع بلوغه سن النضوج، فقد بلغ يومها سن الخامسة والعشرين. وقد وصفه "كبير مساعدي الربان" المسمى "ماهون" كما يلي: "شاب ممتاز وضابط جيد، أفضل مساعد ثان سبق لي أن أبحرت معه."

ورغم ذلك، غالباً ما كان كونراد يتشاجر مع أولئك الذين كانوا مسؤولين عنه شكلياً. ورغم أنه كان يحتقر الثوار، إلا أنه كان نوعاً ما متمرداً طوال حياته. إن المراهق الأنيق الذي راح يتبختر على أرصفة مرسيليا كان ما يزال يسكن في القلب الشجاع لضابط البحرية التجارية البريطانية وقد طرد من السفينة التالية التي عمل على متنها واسمها "ريفرديل"، وذلك لأنه اتهم الربان بأنه سكير. وقد أرغم كونراد على كتابة اعتذار وأن يدفع (٦٠) روبية كتعويض. ويمكن للمرء أن يتخيل رد فعل كونراد حين علم أن "ريفرديل" اصطدمت بالشاطئ في طقس جيد، بعد أربع وعشرين ساعة من مغادرتها للميناء. وقد ألغيت رخصة هذا الربان مدة عام كامل: ربما أخطأ كونراد فظنّ السكر عدم كفاءة.

كما عرف كونراد المزيد من سوء الحظ حين عاد من "بومباي" على السفينة "نارسيسوس"، وهي التجربة التي زودته بمادة روايته الرائعة "زنجي نارسيسوس". كما جلب معه إلى إنكلترا سعداناً (ربما من أجل الرفقة) مما سبب له سلسلة متواصلة من المتاعب حتى تخلص منه في "ذا ماينوريز"[1] .

كما شارك في رحلات بحرية أخرى إلى "الشرق" على السفينتين "تلكيرست" و "هايلاند فورست"، وتقدم إلى المزيد من الامتحانات ونجح فيها.

كانت "شهادة كبير مساعدي الربان" و"شهادة رئيس البحارة" تتطلبان معرفة بفن الإبحار والتستيف وتثبيت السواري والقلوع والملاحة وعلم الفلك

---

(١) ذا ماينوريز: منطقة في لندن قريبة من برج لندن الشهير. (المترجم)

الملاحي. كان متوقعاً من كونراد أن يعرف كيف يجد خطوط الطول مستخدماً النجوم، وكيف يوضب أكوام الفحم ويمنع المرض من الانتشار على متن السفينة. لم يتقدم كونراد إلى الامتحانات الإضافية لرتبة "رئيس البحارة" التي تتضمن المعرفة بحساب المثلثات. ورغم أن هذه الامتحانات كلها تبدو صعبة، إلا أن معادلها الفرنسي كان حتى أكثر صعوبة.

لاحظ "إدوارد بلاكمور" في "ذا بريتيش مركنتايل مارينر" (١٨٩٧) أنه "من حيث معيار التعليم وكما تبين من البحوث فإننا في مستوى أقل بكثير من الدول الأخرى التي تظاهرنا بأننا نتبع مثالها..." إن التفوق الطبيعي للخدمات التجارية البريطانية لم يكن أمراً واضحاً بنفسه، رغم أن شهادة كونراد تفيد بعكس ذلك. وبعد حازوقتين، تأهل كونراد ككبير مساعدي الربان ثم كرئيس للبحارة. كانت الوظائف صعبة المنال، وكان كونراد ما يزال يعتمد على مساعدة كبيرة من تاديؤش. وأخيراً في ١٩ آب (أغسطس) من عام (١٨٨٦) حصل كونراد على الجنسية البريطانية.

ومن جديد فقد قام بمطّ الحقيقة: فهو يزعم أنه كان في الثانية عشرة من عمره حين غادر روسيا، وأنه أنفق فترة عشر سنوات كبحار تجاري بريطاني، ونال رتبة كبير معاوني الربان. وفي الواقع، كان عمره عشر سنوات حين ذهب إلى مدينة "لفوف" (ربما كان هذا خطأ أصلياً)، وأنفق ثماني سنوات في خدمة البحرية التجارية، وحتى هذه المرحلة لم يكن قد نال وظيفة كبير معاوني الربان. من المفهوم أنه كان عليه أن يفبرك تفصيلاً أو اثنين ليبلغ هدفه، ولكن من العجيب أنه كان مستعداً للمخاطرة بجنسيته على هذا النحو. لا شك أنه كان يعتمد على كسل الموظفين الذي لا بد وأنه اعتبره أمراً لا غنى عنه.

في عام (١٨٨٧) غادر كونراد إنكلترا إلى "الشرق" في زيارة أخيرة، كرئيس بحارة على متن "هايلاند فورست"، وهو مركب حديدي بحمولة تبلغ

(١٠٤٠) طناً وله طاقم من (١٨) رجلاً. وسوف يتم تذكر هذا المركب بمودة لاحقاً. كتب أحد أفراد هذا الطاقم يقول:

«*كان لطيفاً جداً معنا نحن الشبان، وهو أمر لا يمكن نسيانه بسهولة... فنحن كمعظم الشبان في السن التي كنت فيها تحت إمرة السيد كونراد، لم نكن ندرك ما معنى اللطف حقاً*».

خلال هذه الرحلة يبدو أن كونراد وقع فريسة للمرض، وكما حدث دائماً، فقد وفر تاديؤش لابن شقيقته المساعدة المالية ما أن وصل إلى "سمرنغ"[1]. وخلال الأشهر الأربعة التالية كان من الصعب تتبع تحركات كونراد رغم أنه بقي في المستشفى لفترة من الزمن. والآن هاهو يتمكن من مراقبة الاستعمار عن كثب. لقد برز الهولنديون كقوة مهيمنة في أرخبيل الملايو بعد سلسلة من الصراعات عام (١٦٢٣). وقد استطاعوا إبقاء سيطرتهم رغم الاهتمام البريطاني المتواصل بها. ورغم أنهم كانوا في أواخر القرن التاسع عشر يحكمون - على وجه الافتراض - وعلى نحو غير مباشر من خلال السلاطين والزعماء المحليين، إلا أنهم استمروا في التدخل المباشر في الشؤون الداخلية للولايات من أجل مصالحهم الخاصة. عانى السكان الأصليون من التفكك الاجتماعي دون أي مزايا اقتصادية. بعد سنوات لاحظ كونراد بحدة أنه لم يكن لدى البوير[2] "أي فكرة عن الحرية التي لا يمكن أن توجد إلا تحت العلم البريطاني في كل أنحاء العالم. هذا شعب استبدادي على نحو جوهري (وردت بالفرنسية) شأن جميع الهولنديين بالمناسبة."

وقد كان لقاؤه مع "تشارلز ويليام أولميجر" الذي سيصبح بطل أول روايات كونراد "حماقة أولماير" خلال عمله كرئيس للبحارة على السفينة

---

(١) سمرنغ : جزيرة إندونيسية. (المترجم)

(٢) البوير: المستوطنون من أصل هولندي في جنوب أفريقيا. (المترجم)

"فيدار"، السفينة التالية له في هذا المنصب. غادرت "فيدرا" سنغافورة متجهة إلى بورنيو وبولاو لاوت وجزر السلبس[1] ثم العودة مجدداً وهي تنقل الفحم. كانت الرحلة مريحة نسبياً وكونراد يسترد عافيته بعد المرض. كان أولميجر حين قابله كونراد، متزوجاً من امرأة أسيو - أوربية وقد أنجبا أحد عشر طفلاً. وبسبب نواحي الشبه الخارجية القليلة بينه وبين شخصية "أولماير" الأبيض البشرة في الرواية والذي لديه ابنة وحيدة، يميل النقاد إلى تجاهل تصريح كونراد في كتابه "سجل شخصي" الذي قال فيه: "لو لم أعرف أولماير جيداً جداً فمن المؤكد تقريباً أني ما كنت سأكتب أي شيء يستحق الطباعة قط!"

ولكن شيئاً ما في شخصية أولميجر وسكناه القصية في "تانجونغ ريديب" ألهمت كونراد بأن يتأمل في هؤلاء الأشخاص المنقطعين عن العادات المألوفة للمدنية، الذين يجدون أنفسهم وقد انجذبوا إلى عالم من الأمل الذي لا أساس له والوهم الذاتي الممكن التنبؤ به. لا ريب أن الحقيقة القائلة إن كونراد استطاع أن يمزج بين هذه الملاحظات وبصائر مؤلفيه المفضلين "فلوبير" و "موباسان" قد أضافت حرافة إلى هذا المزيج. بعد عامين من العمل على السفينة "فيدار"، بدأ كونراد بكتابة أو رواياته بجدية، على الرغم من أنه من الممكن أن يكون قد بدأ بكتابة أفكاره في وقت أبكر. وعلى أي حال، كان العمل على "فيدار" طويلاً وبطيئاً، ولا بدّ أنه كان يحظى ببعض أوقات الفراغ التي تحتاج إلى ما يملأها.. (تفتتح رواية "لورد جيم" بتقريع كونراد للبحارة الذين يتخلون عن العواصف والعمل الشاق من أجل السماء والبحر "الشرقيين"، إذ يحبون "الممرات القصيرة ومقاعد ظهر السفينة الجيدة، والأطقم الكبيرة من السكان المحليين والتميّز بكونهم بيض البشرة").

---

(١) هذه جزر في ماليزيا وإندونيسيا. (المترجم)

في ٩ كانون الثاني (يناير) من عام (١٨٨٨)، يغادر كونراد سنغافورة إلى بانكوك ليتسلم إمرة المركب الحديدي الذي تبلغ حمولته (٣٤٦) طناً المسمى "أوتاغو". وكانت هذه أول مرة يكون فيها كونراد رباناً لسفينة. كان يحل محل "جون سنادن" الذي توفي خلال تولي القيادة: كان شخصاً غريب الأطوار بعض الشيء، وينفق معظم وقته وقد أقفل على نفسه باب قمرته ليعزف على الكمان. في رواية "خط الظل"، التي يعيد فيها كونراد سرد هذه الرحلة، من المفترض أن هذا الربان قد باع المواد الطبية أيضاً بعد أن سلبها. ورغم أن هذا ليس مستحيلاً، إلا أنه من غير المحتمل حدوثه.

كان قبطان المركب مسؤولاً بشكل كامل وحصري عن كل ما يحدث. لم يكن قادراً على الحصول على الكثير من الصحبة، وكان دوره ممزوجاً بالوحدة. ومن ناحية أخرى كان الطاقم صغيراً مؤلفاً من تسعة رجال (القبطان وضابطان وستة بحارة)، لذا على المرء أن يتجنب أن يصبح كثير الاستثارة. في الثالث من آذار (مارس)، غادر "أوتاغو" أخيراً الميناء باتجاه ميناء "سيدني" (في أستراليا)، ولدى وصوله إلى هناك أخيراً بعد شهرين، وافق كونراد على أن يبقى مسؤولاً عن المركب.

كانت الرحلة التالية بحمولة من السماد والصابون والشحم الحيواني نحو موريشيوس. ورغم أنه فشل مرتين في النجاح في امتحانات الملاحة، إلا أنه كانت لدى كونراد فكرة لامعة هي محاولة المرور عبر المسار الأصعب، عبر "مضيق توريس". ورغم أن هذا طريق أطول ومتعرج، إلا أنه من المفترض أن يكون أسرع: في الحقيقة لم يثبت أنه أسرع فقد استغرقت الرحلة أربعة وخمسين يوماً.

رست "أوتاغو" في ميناء "بورت لويس" في موريشيوس في الثلاثين من أيلول (سبتمبر). يصف أحد راسمي خرائط المركب كونراد كما كان في سن الواحدة والثلاثين:

«كان الكابتن كوجينوفسكي يرتدي دائماً ملابس أنيقة. أستطيع أن أراه... وهو يصل إلى مكتبي كل يوم تقريباً في معطف أسود أو داكن اللون، مع صدراة فاتحة اللون عادة وبنطال مبهرج. ملابسه كلها مخيطة بشكل بارع وحسب الموضة. كان يضع على رأسه قبعة سوداء ورمادية مقببة وقد أميلت قليلاً إلى جانب. كان يرتدي االقفازات باستمرار ويحمل عصا ذات مقبض ذهبي... لم يكن ... يحظى بشعبية كبيرة بين زملائه الذين كانوا يطلقون عليه ساخرين لقب "الكونت الروسي"».

فضلاً عن إعطاء فكرة ما عن الكيفية التي كان كونراد ينفق بها ماله، تظهر هذه الفقرة أنه كان ما يزال يعتبر نفسه نبيلاً بولندياً: أي "شلاختا" حتى رؤوس قفازيه الأنيقين. وعلى العكس من ذلك، يمكن دون صعوبة تُذكر أن نستنتج من هذا الوصف نبضة كامنة من كره الأجانب والعنصرية. البولنديون والروس على حد سواء: أجانب ولا يمكن الوثوق بهم.

ورغم أن كونراد عرف دون شك أنه كان ضحية لتهكمات من هذا النوع، إلا أنه لم يذكر قط في رواياته أو في أي مكان آخر أنه استاء من ذلك. لقد استطاع أن يسير فوق حبل رفيع مشدود: فهو يؤكد على كونه بولندياً بأساليبه التي تدل على غرابة أطواره. والنتيجة هي أنه كان يبث من حوله فتنة غريبة.

كان "غابرييل رينوف"، وهو قبطان في البحرية التجارية، قد قدّمه إلى أسرة "لوي شميدت"، وهناك فُتن كونراد بـــ "أوجين رينوف" شقيقة زوجة السيد شميدت، وقد وجدت هذه في كونراد شخصاً غير عادي ومثيراً. يظهر "ألبوم الثقة" أنه كجزء من ألعاب حفل ما، اضطر القبطان البولندي إلى الإجابة على قائمة من الأسئلة. ورغم أنه كان يتخاطب مع الأسرة بالفرنسية، إلا أن إجاباته كانت بالإنكليزية. بعض إجابات كونراد كانت من النوع الكاشف إلى حد مدهش:

« - *ما هي النزعة الأساسية في شخصيتك؟ الكسل.*

- *ما الذي تسلي نفسك به؟ بأن أجعل نفسي عزيز المنال.*

- *ما هو حلم سعادتك؟ لا أحلم به قط. أريد الواقع.*

- *ما الذي تحبه؟ كنت أتمنى لو لم أوجد.*

- *في أي بلد تود أن تعيش؟ لا أعرف. ربما لابلاند*[1].

- *ما الذي تكرهه أكثر من أي شيء آخر؟ النفاق*».

طبعاً كونراد شديد السخرية هنا وهو يلعب حرفياً هذه اللعبة، ومع ذلك فإن هذا المزيج من تأمل النفس الحاد والكآبة المزاجية يأتي صاخباً كما في رواياته. وبدون أن يصعّب المهمة على نفسه، فإن الخوف من الكسل كان سينتاب كونراد فترة طويلة من حياته.

قبل أن يحل موعد إبحاره بفترة قصيرة صرح كونراد برغبته في أن يتزوج من "أوجين"، ولكنه سيكتشف أنه سبق لها وكانت مخطوبة لصيدلاني. وخلال اليومين الباقيين من مكوثه في موريشيوس، قضى الوقت كله على متن المركب. وقد تحولت هذه الحادثة لاحقاً إلى قصة "ابتسامة الحظ"، حيث نجد قبطاناً شاباً يغازل ابنة شمّاع السفينة في حديقة كانت عبارة عن "عزلة ملونة بشكل باهر، ناعسة في صمت شهواني دافئ".

في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، أبحر "أوتاغو" إلى ملبورن. وبعد سفرة بحرية قصيرة أخرى، استقال كونراد من عمله كقبطان. وهناك تفسير رومانسي يقول إن مالكي المركب أرادوا منه العودة إلى "بورت لويس"، ولكن كونراد لم يكن حريصاً على العودة إلى المكان الذي شهد إذلاله. وهناك نظرية أخرى تقول إنه ملّ من التسكع حول الشاطئ الأسترالي وأراد الانطلاق نحو أفريقيا. وعلى الأرجح فإن كونراد كان قد ملّ من قيادة مركب

---

(١) منطقة تقع في شمالي اسكندنافيا. (المترجم)

صغير وأراد العودة إلى أوروبا، ربما مع فكرة البدء بمهنة جديدة. من المؤكد أن مالكي "أوتاغو" قد فهموا السبب: "الآن يسرنا كثيراً القول إن هذه الاستقالة المبكرة من عملك لدينا قد تمت حسب رغبتك بسبب تطلعك إلى زيارة أوروبا..." لدى وصوله إلى لندن استأجر شقة في "بيمليكو".

كان تقدم كونراد كملاح تجاري قد توقف. ورغم أنه كان محبوباً من أفراد طاقمه وكسب احترام أصحاب السفن، إلا أنه لم يمنح قط الإمرة على سفينة كبيرة الحجم. لقد مال إلى قيادة مراكب صغيرة وكان يستقيل دون سبب "معقول"، كما في حالة المركب "أوتاغو". كانت المنحة المالية من تاديؤش تعطيه الحرية في هذا المجال، ولكن تبين أيضاً أنها كانت تعيق تقدمه المهني. كان كونراد عصبي المزاج وقلقاً وسهل الإصابة بالضجر.

حين بدأ بكتابة "حماقة أولماير"، زعم أنَّ ذلك حدث صدفة:

«كان مفهوم كتاب مخطّط له أمراً خارج مدى ذهني حين جلست لأكتب. لم يكن الطموح إلى أن أصبح مؤلفاً ليبرز بين تلك الوجودات اللطيفة المتخيلة التي يخلقها المرء لنفسه بصبوة...»

في عام (١٩٠٣) كتب إلى صديق بولندي قديم: "بدأت بكتابة (حماقة أولماير) صدفة، دون أن أفكر كثيراً فيما كنت أفعله لأملأ فراغ صباحات أيامي ضمن فترة مكوث طويل في لندن بعد إبحاري لسنوات ثلاث في بحار جنوبية."

* * *

٤- الكاتب المتمـرن

(١٨٨٩-١٨٩٥)

لماذا اختار كونراد أن يكتب بالإنكليزية؟ لا يوجد جواب مناسب. كان جوابه هو بسيطاً، فقد كان يفكر بالإنكليزية لسنوات، وأحب هذه اللغة ولم تخطر له الكتابة لا بالبولندية ولا بالفرنسية. وإضافة إلى ذلك، كانت الرواية البولندية ما تزال تحبو عام (١٨٨٩). من الناحية النفسانية، ربما كان أمراً جذاباً لكونراد أن يتقن مهنة ما. ففي المراحل الأولى من عمله كبحار لم يكن يجد الأمر سهلاً، وربما كان المغزى في هذه الناحية. فهو إذ كان يخشى من تهمة الكسل، فقد أراد أن يبرهن لنفسه أنه قادر على التغلب على تعقيدات نحو اللغة الإنكليزية ومفرداتها... وهذا بالأحرى شيء أشبه باختيار أصعب مسارات الإبحار. من الممكن أن تكون الكتابة بالإنكليزية قد منحته "بعداً" ما عن موضوعه: فبينما يكون منهمكاً عن وعي في التعامل مع الجمل، فإن المادة اللاشعورية المعقدة ستطفو على السطح كفقاعة دون استشعار مفرط بالنفس غير ملائم. وعلى أي حال فإن كونراد كان سيحمل معه أنّى ذهب مخطوطة أول رواياته خلال السنوات الخمس التالية.

في ٢٤ أيلول (سبتمبر) من عام (١٨٨٩)، فإن "الكابتن تيس" المدير بالنيابة لـــ "الجمعية البلجيكية المغفلة للتجارة في الكونغو العليا" في بروكسل، سأل وكيل كونراد عن إمكانية التعاقد مع كونراد للعمل في الكونغو:"إن ثقافته

العامة أعلى من تلك التي يتمتع بها معظم رجال البحر، كما أنه جنتلمان بكل ما في الكلمة من معنى." وكان كونراد سيعترف بأن أفريقيا بدت له على الدوام إمكانية مترعة بالإغراء، لذلك أجرى المقابلة في تشرين الثاني (نوفمبر)، وطلب إليه الشروع في العمل في نيسان (أبريل) القادم. وكانت تلك السفرة ستبرهن على أنها أهم سفرة في حياته.

في تلك الأثناء زار خاله في بولندا، وأقام علاقة غير عادية مع "مدام بورادوفسكا"، وهي روائية مثقفة وجميلة سماها كونراد "الخالة". كانت تكبره بست سنوات، ولكن تاديؤش رآها بالفعل كتهديد لعزوبية كونراد. ومن المثير للاهتمام أن كونراد كان ما يزال تحت حماية تاديؤش، حتى وهو في العقد الرابع من عمره. وخلال هذه الزيارة سلم تاديؤش إلى كونراد "الوثيقة" مع الحساب المالي الكامل لتنشئته. "كلفت تربية السيد كونراد حتى وصل إلى سن الرجولة – بغض النظر عن (٣٦٠٠) روبل أعطيت له كرأسمال – مبلغ (١٧٤٥٤) روبلاً."

حين عاد كونراد إلى إنكلترا، كان في الكونغو شاغر للعمل كربان مركب نهري، فقد كان "الكابتن فرايزلبن" قد اغتيل في "تشومبيري". بعد ثلاثة أشهر من مقتله كان جثمانه لم يدفن بعد، ويقول أحد المبشرين إن "شعره قد قُص وصنعت منه طرّة عقدت من حول وجهه."

لا شك أن كونراد كان غير مستعد إطلاقاً لمّا كان على وشك أن يواجهه. كانت الكونغو ملكاً خاصاً بالملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا. وكان هذا قد أنشأ "الجمعية الدولية لمكافحة الاسترقاق وفي سبيل الانفتاح في أفريقيا الوسطى" في عام (١٨٧٦). وفي أول مؤتمر لهذه الجمعية، أعلن الملك عن استعداده "لأن يفتح أمام المدنية المنطقة الوحيدة من عالمنا التي لم تدخلها بعد، وذلك للتخلص من الحزن الذي يخيّم على أجناس بحالها."، وكل ذلك

باسم التقدم. في عام (١٨٨٥)، كان ليوبولد معترفاً به دولياً على أنه ملك "دولة الكونغو الدولية". وتحت غطاء هذه الدعاية، كان ليوبولد منخرطاً في استغلال اقتصادي وحشي واستعباد وجرائم قتل. ربما مات ما بين ثمانية إلى عشرة ملايين شخص تحت رعاية ليوبولد الحريصة. وقّع كونراد عقداً مدته ثلاث سنوات واصطحب معه مخطوطة "حماقة أولماير"، في حال أنه سيجد الوقت للعمل عليها.

بعد سفرة دامت شهراً كاملاً، وصل كونراد إلى "بونا"، ومن هناك ركب باخرة أوصلته إلى "ماتادي" حيث قابل "روجر كايسمنت" الذي وجده كونراد "ذكياً ومتعاطفاً جداً." كان كايسمنت هذه وسيماً ومثالياً وفتن كونراد بسحره:

«وهو أيرلندي بروتستانتي أيضاً... هناك شيء من شخصية "الغازي الإسباني" فيه أيضاً. فقد شاهدته يقتحم برية يعجز الوصف عنها ... بصحبة كلبين من نوع البولدوغ ... يسيران في أعقابه، وصبي من "لاند" يحمل بقجة، وهذا كل ما في الأمر. بعد أشهر قليلة رأيته يخرج وهو أكثر نحولاً واسمراراً... إلا أنه هادئ جداً كأنه انتهى لتوه من مشوار في الحديقة».

كان كايسمنت يعمل ناظراً على مشروع خط سكة الحديد من "ماتادي" إلى "ليوبولدفيل". في عام (١٩٠٣) كانت له يد في كشف بعض أهوال كونغو الملك ليوبولد التي كان فيها التعذيب وتقطيع الأوصال يعتبران كوسيلتين إداريتين عاديتين. وقد يكون نبّه كونراد إلى أن عليه أن يتوقع مشاهدة أشياء لا تسر الخاطر وهو في طريقه إلى أعلى النهر.

ورغم أن "قلب الظلام"، رائعة كونراد التي استوحاها من رحلته هذه، قد عدّت ذات مرة أمراً مبالغاً فيه، إلا أنها ينظر إليها مؤخراً على أنها دقيقة إلى حد مدهش. كان الرجال يقيدون بالسلاسل معاً ويدفع للعمال أجرهم بقضبان النحاس، كما اعتبر أكل لحوم البشر أمراً شائعاً. وبالنسبة إلى بحّار

السفن التجارية المعتاد على النظام والروتين، كانت هذه البيئة ستبدو له أشد ما تكون غرابة وإلى حد عدم التصديق.

كانت المسافة بين "ماتادي" و "كينشاسا" تستغرق ثمانية عشر يوماً. اعتاد كونراد أن يكتب (بالإنكليزية) مذكرات يومية مختصرة إلى حد مفرط: "قابلت موظفاً حكومياً يقوم بالتفتيش. بعد دقائق قليلة شاهدت في أحد المخيمات جثة واحد من "الباكونغو" مقتولاً بالرصاص. كانت الرائحة لا تطاق." في اليوم التالي يقول ملاحظاً:"جثة أخرى مرمية على الممر في وضعية أشبه ما تكون لشخص يستريح في سكون."

في كينشاسا اختلف مع مديره "كاميل دولاكومون": "المدير متعامل عادي بالعاج ذو غرائز دنيئة يعتبر نفسه تاجراً رغم أنه مجرد صاحب دكان أفريقي."

لم يقم كونراد سوى برحلة واحدة إلى أعلى النهر، وهي بطول ألف كيلومتر إلى "شلالات ستانلي" في باخرة مصنوعة من القصدير اسمها "ملك البلجيكيين". في البداية كانت هذه الباخرة بقيادة "لودفيغ كوخ"، وهو شاب دنماركي. بين الطاقم المؤلف من ثلاثين رجلاً كان هناك واحد أو اثنان من أكلة لحوم البشر. قال تاديؤش مازحاً: "أشعر بالثقة من أني سأسمع ثانية منك شريطة ألا يكون قد سبق لك أنْ طُهيت وأُكلت كشواء."

ومهما يكن كايسمنت قد حكى لكونراد، إلا أنه كان قادراً على أن يرى بنفسه الآثار المدمرة التي تقوم بها الإدارة البلجيكية. في الأول من أيلول (سبتمبر) من عام (١٨٩٠)، وبعد رحلة استمرت شهراً كاملاً، وصل كونراد إلى الشلالات. بعد خمسة أيام وقع "كوخ" فريسة المرض، ووجد كونراد نفسه مسؤولاً عن الباخرة. ورغم أن الرحلة قد لا تكون مفزعة إلى الحد الذي وصفت به في "قلب الظلام"، إلا أنها كانت حتماً مقيتة بما فيه الكفاية.

عند "شلالات ستانلي" وبدلاً عن المغامرة الغريبة التي كان يحلم بها وهو صبي بعد، فقد وجد القلب النابض لمشروع ليوبولد الرأسمالي عديم الشفقة.

في السابع من أيلول (سبتمبر)، انطلق في رحلة العودة إلى كينشاسا. على متن الباخرة كان معه "جورج – أنتوان كلاين"، وهو وكيل عيّن مؤخراً ويعاني من الزحار. وقد توفي في الحادي والعشرين من الشهر نفسه واسمه موجود في مسودة "قلب الظلام" قبل أن يبدله كونراد ليصبح "كورتس". لم يكن يشبه ندّه الروائي الذي بُنيت شخصيته وفق شخصية "فاوست". ومن الممكن أيضاً أن يكون كونراد قد سمع بالمغامرات اللاحقة لـــ "ليون روم" الذي عاش في ليوبولدفيل في تسعينات القرن التاسع عشر. حين كان هذا رئيساً لمحطة "شلالات ستانلي" عام (١٨٩٥)، لاحظ صحفي بريطاني أنه خلال حملة عسكرية جرت مؤخراً: "أُسر العديد من النساء والأطفال، وقد جُلب واحد وعشرون رأساً إلى الشلالات واستخدمها "روم" كديكور من حول أحواض الزهور أمام المنزل."

أصيب كونراد بالزحار والملاريا. وصلت "ملك البلجيكيين" إلى كينشاسا في الرابع والعشرين من أيلول (سبتمبر)، ولكن كونراد لم يكن في حالة تسمح له بالاستمرار في العمل، ولديه الآن عذر لإنهاء عقده. كان قد قضى ستة أشهر فقط في أفريقيا، ولكنه شاهد منها ما يكفي. كتب أحد الشهود: "أنا في صحبة... الكابتن كونراد من "شركة كينشاسا": هو مريض باستمرار بالزحار والحمى." كان سيقول لاحقاً لصديقه وناشره "إدوارد غارنت": "قبل الكونغو كنت حيواناً كاملاً... أرى كل شيء بقنوط كبير... كل شيء مغطى بالسواد."

قي ٢١ شباط (فبراير) من عام (١٨٩١)، عاد أخيراً إلى لندن حيث أدخله اثنان من رفاقه القدامى "هوب" و "كريغر" إلى المستشفى. كان "ج. ف.

هوب" رجل أعمال سبق لكونراد أن عرفه من خلال وكلاء بحريين. أما "أدولف كريغر" فكان شريكاً في شركة وكلاء شحن. وقد صُدما كلاهما بما شاهداه. حين عاد هوب كونراد في المستشفى كتب لاحقاً يقول:"قالت الممرضة إنها ظنت أنه سيكون في عداد الموتى، ولكنه تعافى تدريجياً وتمكن خلال أسابيع قليلة من الانتقال إلى شقته في شارع غيلينغهام، قرب محطة فيكتوريا." لم تكن قدرة كونراد على استرداد عافيته أمراً يمكن الاستهانة به.

خلال الأشهر القليلة التالية راح كونراد يتسكع باحثاً عن عمل دون أن ينجح في ذلك. كانت رسائله إلى "مدام بورادوفسكا" العظيمة مترعة بالتشاؤم:"ما زلت منغمساً في أكثر الليالي حلكة وأحلامي مجرد كوابيس." وقال بعد ذلك:"هذا المساء أشعر كأني ملقى في زاوية بعمود فقري مكسور وأنف في التراب."

كان كونراد مصاباً باكتئاب دائم، وقد فاقمت تجربته في الكونغو من هذا الأمر إلى حد كان يبدو معه أنه مريض سريرياً. ومن ناحية أخرى، لا يجب على المرء أن يبالغ كثيراً في هذا الأمر: فخلال هذا الوقت كله كان ما يزال يعمل على إنهاء كتابة "حماقة أولماير" وقادراً على تركيز ذهنه على المهمة الصعبة المتمثلة في كتابة رواية مبتكرة تماماً بلغة أجنبية.

كان المرض يعاوده أحياناً ثم يزول، ولكن كونراد شعر أخيراً في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) أنه قوي بما فيه الكفاية ليقبل العمل كمساعد أول للربان على سفينة الركاب "تورنز" التي بلغت حمولتها (١٣٣٤) طناً، براتب فخم يبلغ (٨) جنيهات شهرياً. في الخامس والعشرين من الشهر نفسه غادرت السفينة بلايموث إلى أستراليا.

كانت "تورنز" واحدة من أشهر السفن وأسرعها في زمانها، وهي المفضلة للعبور إلى ميناء "أديلايد". لا شك أن هذا العمل كان أرقى عمل حصل كونراد عليه.

قام بعدة سفرات إلى أديلايد، وفي كتابه "سجل شخصي" يصف كيف أنه عرض على أحد الركاب، وهو شاب تخرج للتو من جامعة كامبريدج، روايته "حماقة أولماير":

« "حسناً ما رأيك؟"هل تستحق أن ينهي المرء قراءتها؟" هكذا سألته أخيراً. فأجاب بصوته الرزين المبطن: "بامتياز". ثم سعل قليلاً.

فهم كونراد السعال على أنه تلميح إيجابي.

في رحلة العودة قام بأول اتصال مع شخصية أدبية. لم يكن "جون غولزويرذي" قد بدأ بعد عمله بالتأليف الذي استحق عليه جائزة نوبل لاحقاً.

كان غولزويرذي إنكليزياً درس في المدارس العامة وتخرج من جامعة أكسفورد وعلى وشك أن يمتهن المحاماة شأن أبيه. ورغم عدم تمتعه بالخيال على نحو قوي، إلا أنه كان لديه ميل إلى التجارب الفنية. في رسالة إلى صديقه أعرب عن رأيه قائلاً:"أود دائماً أن أدخل إلى قلب الأشياء الجميلة وأشعر أني على تماس وثيق بها... أتساءل إن كان لديك مثل هذا الشعور أنت أيضاً." ثم يتابع قائلاً: "أتمنى لو كانت لديّ موهبة التأليف، وأعتقد حقاً أنه ألطف طريقة لاستثمار النقود..."

يبدو أن تركيبة غولزويرذي الذهنية البسيطة لاقت إعجاباً لدى كونراد. في رسالته الثانية المرسلة من سفينة "تورنز"، كتب الفائز بجائزة نوبل لاحقاً ما يلي:

«*المساعد الأول للربان شخص بولندي اسمه كونراد وهو شاب ممتاز رغم غرابة مظهره. وهو رجل أسفار وتجارب في أنحاء كثيرة من العالم، كما أن لديه كنز من الحكايات التي أستطيع أن أستفيد منها بكل حرية. كان قد ذهب إلى الكونغو ودار من حول "مالاقا" و"بورنيو"... هذا إن لم نذكر عمله في التهريب في أيام شبابه المبكر...*"

يبقى فهم غولزويرذي لما هو سـطحي من الأمور فهماً نمـوذجياً. في الحقيقة كان كونراد قد تعب من حياة السفر عبر البحار بـ "وجودها الرمادي المتسق."

ومن جديد، وبالضبط حين بدا أن كونراد ظهر عليه الاستقرار، تخلى عن عمله على السفينة. استقال قبطان "تورنز"، ووجد كونراد أن فرصة خلافته كانت ضئيلة، ولو أنه تمنى ذلك. في آب (أغسطس) من عام (١٨٩٣) قرر أن يزور تاديؤش في أوكرانيا. وكان ذلك آخر لقاء بينهما، فلم يكن قد تبقى لتاديؤش الكثير من العمر. وكما يمكننا أن نتنبأ، فقد كان كونراد هو نفسه مريضاً، وقد اعترف قائلاً:"يعتني بي خالي وكأني صبي صغير." مع مرور السنين بقيت العلاقة بينهما دون تغيير.

في أيلول (سبتمبر) من عام (١٨٩٣)، وجد كونراد عملاً كمساعد ثان للربان على الباخرة "أدوا" وحمولتها (٢٠٩٧) طناً. منذ عودته من الكونغو كانت رتبته في العمل آخذه بالهبوط.

في الرابع من كانون الأول (ديسمبر) رست "أدوا" في ميناء "روان" (فرنسا) وبقيت هناك. كان من المتوقع أن يصعد إليها مسافرون إلى "كيبيك" في كندا، ولكنهم لم يظهروا قط. وبما أن كونراد كان دون شيء يشغله، فقد كتب ونقّح الفصل العاشر من "حماقة أولمايز". وأخيراً عادت "أدوا" إلى لندن وهبط منها كونراد في كانون الثاني (يناير). لم يدرك أن مهنته كبحار تجاري قد وصلت إلى نهاية مكتومة.

منذ لحظة مغادرته "كراكوف" عام (١٨٧٤) حتى يوم مغادرته للسفينة "أدوا"، عمل كونراد على متن السفن لأحد عشر عاماً وشهرين، فأنفق أكثر من ثماني سنوات فوق مياه البحار والمحيطات. وقد خدم ثمانية أشهر كمساعد ثالث للربان وأربع سنوات تقريباً كمساعد ثان للربان، وسنتين ونيف كمساعد

أول للربان وسنة وشهرين كربان. أما عمله على البواخر فدام تسعة أشهر فحسب. كانت مهاراته قد شحذت على الأشرعة، وكانت السفن الشراعية تختفي بسرعة.

ورغم أن كونراد أضفى مسحة رومانسية على تضامن الخدمة التجارية البحرية، إلا أنه لاشك في أن الروتين والنظام الصارم للحياة على متن السفن كانا يمنحانه بعض التعزية. وإذا ما أخذنا في الحسبان مزاجه الكئيب بسبب طبيعته، فإن الحاجة إلى أن يكون عملياً بشكل صارم واتباع الأوامر كانا سبباً لشعوره بالراحة.

ولكنه كان يشعر دون شك وفي معظم الأوقات بالملل وعدم الراحة. وقد أكد فورد مادوكس لاحقاً على هذه النواحي من حياة كونراد المهنية ببصيرة حقيقية:

«كان وجود كونراد بأكمله يمر بسلسلة من سفرات من تسعين يوماً، في سفن يتطلب العمل عليها كدحاً شديداً، تحت ظروف طقس مروعة، بين واجبات ثقيلة وعمل مرهق في حالة انعدام للراحة وألم جسدي حاد... مع أيام قليلة، بين السفرات، يقضيها كبحار على الشاطئ».

توفي تاديؤش في العاشر من شباط (فبراير) من عام (١٨٩٤). كتب كونراد عنه بعد عشر سنين من ذلك قائلاً:"شاهدته أربع مرات خلال ثلاثين سنة من التطواف، ومع ذلك فأنا أدين بأي سجايا جيدة أمتلكها لوفائه ورعايته وتأثيره."

لا شك أن تاديؤش كان يدعي الصلاح لنفسه وإلى حد متعب، ولكنه كان أيضاً كريماً ويراعي مشاعر الغير. لقد رعى ابن شقيقته مالياً كما ترك له مبلغاً قدره خمسة عشر ألف روبل عند وفاته، مما مكّن كونراد من الانطلاق بعمله ككاتب محترف.

قد يجادل الفرويديون بأن وفاة هذا الأب البديل مكّن كونراد من إنهاء روايته الأولى. وهذا محتمل وغير محتمل. في ٢٤ نيسان (أبريل) كتب كونراد إلى مدام بورادوفسكا:

«*يؤسفني جداً أن أبلغك بوفاة السيد كاسبار أولماير التي حدثت في الساعة الثالثة من هذا الصباح. انتهى الأمر!... كل أولئك الأشخاص الذين تكلموا في أذني وتحركوا أمام عينيّ... أصبحوا مجرد جمهور من الأشباح يبتعد ويصبح باهتاً وغير ممكن تمييزه، يتلاشى مع نور شمس هذا النهار الساطع إنما الكئيب*».

في تموز (يوليو)، أرسلت المخطوطة إلى دار نشر "فيشر أنوين". وقد وصلت إلى يدي "إدوارد غارنت" الذي كان من بين اكتشافاته "د. هـ. لورنس". وبناء على توصيته قُبلت الرواية.

كتب هذا لاحقاً عن أول لقاء له مع كونراد ما يلي:

«ما أتذكره هو أني رأيت رجلاً داكن الشعر قصير القامة إنما بالغ الرشاقة وذو إيماءات عصبية، بعينين لامعتين تضيقان أحياناً مع كونهما نفاذتين، ثم تصبحان رقيقتين ودافئتين بأسلوب تحبّبي. كان كلامه مجبولاً بالتودد وحذراً ومتعجرفاً بالتعاقب. لم يسبق لي أن شاهدت رجلاً حاداً على ذلك النحو الذكوري وحساساً بتلك الصورة الأنثوية».

(كان كونراد يصر على القول إنه نتيجة لتشجيع غارنت ومديحه فقد كتب روايته الثانية.) وقد تلقى مبلغ عشرين جنيهاً ونشرت الرواية في ٢٩ نيسان (أبريل) من عام (١٨٩٥).

* * *

٥ - الروائي المحترف

(١٨٩٥-١٩٠٣)

رغم أن رواية "حماقة أولماير" هي جهده الأول، إلا أنها ليست عملاً من أعمال المتدربين. لقد درس كونراد أعمال فلوبير وموباسان وبلزاك بعناية ودأب. كما عمل على مخطوط روايته الأولى خمس سنوات. كان قد عثر على موضوع مبتكر تماماً. ومنذ الجمل الافتتاحية قد يستنتج حتى أكثر القراء دهاء أنه في حضرة كاتب موهوب بقدرة مذهلة:

«*توقفت واحدة من تلك الأشجار المنجرفة عند رف الشاطئ، قرب المنزل، وهاهو أولماير، الذي راح يهمل حلمه، يراقبها باهتمام فاتر. تأرجحت الشجرة ببطء بين هسيس الماء ورغوته، وما أن تحررت من العائق حتى بدأت تتحرك مع تيار النهر مرة أخرى، وهي تتقلب ببطء، وترفع نحو الأعلى غصناً طويلاً عارياً، كأنه يد رفعت في مناشدة صامتة للسماء تشتكي عنف النهر الوحشي وغير الضروري*».

كل العلامات الفارقة لروايات كونراد الناضجة مختومة على الصفحات الأولى الافتتاحية من هذه الروايات: غربة الفرد والقسوة اللامبالية للعالم الطبيعي، والجُمل الأفعوانية التي تبدأ بتعليق جيد الحبكة وتنتهي بنوبة من الخطابية الكئيبة.

أولماير تاجر هولندي في مركز أمامي ناء في الملايو. وهو يأمل بأن يتمكن من التخلي عن زوجته الملاوية سريعاً واصطحاب ابنته إلى أوروبا

حيث ستتغير حياته من كل النواحي. ولكن خطته تنهار. تخونه ابنته وتهرب مع أمير محلّي. وعندما يكتشف خطتها يتحطم قلبه:

«صرخ وهو يقفز بجنون من الخوف المفاجئ الذي بثه فيه حلمه:"لن أغفر لك قط يا نينا!"

كانت هذه آخر مرة في حياته يسمع فيها صوته عالياً. ومنذ ذلك الحين راح يتحدث دائماً بهمس مثل آلة انقطعت كل أوتارها عدا واحد، وذلك في جلبة رنانة أخيرة تحت ضربة ثقيلة».

تذكرنا حياة أولماير، بمزيجها من الملل والفانتازيا، بحياة "مدام بوفاري"، ولكن هناك في مصيره أكثر من عنصر واحد من عناصر "باربانتيو" المتدلّه. كان شكسبير هو أول قراءات كونراد، وتقدم لنا مسرحية "عطيل" الإلهام المضمر لعناصر هامة في الرواية.

مع "راديارد كيبلينغ" نقل كونراد - إلى الأبد – الرواية الإنكليزية من الرضا الذاتي الذي تطغى عليه الروح الطبقية والمتركزة في بيت القسيس، إلى حيّز جديد تماماً؛ وقد أقر بذلك نقاد معاصرون عملوا بصبر وأناة لإعطاء هذه الرواية حقها. وقد اختارتها صحيفة "ذا ويكلي سن" لتكون "كتاب الأسبوع": "سيعرف العالم أن إقليماً عظيماً ورائعاً من الرومانسية قد دخل أدبنا." ثم يُحتفى بكونراد على أنه كاتب عبقري.

بعد مدة قصيرة من الزمن نرى ناقد صحيفة "سبيكر" بلهجة أكثر اعتدالاً وإن تكن تشجيعية بالقدر نفسه:

«*لقد سبق للصحافة أن عبّرت عن نقد إيجابي للقصة الجديدة لكاتب جديد عنوانها "حماقة أولماير"، ولا يتبقى لنا سوى أن ننضم إلى التعبير عن الأمل في ألا يكون هذا هو العمل الأخير لهذا القلم*».

ربما كان الاستقبال النقدي قد أدى بكونراد إلى الاعتقاد بأن الكتاب سيكون رائجاً جداً على وجه الاحتمال، ولو أنه صدق ذلك، فلا بدّ أنه كان

موهوماً شأن أولماير نفسه. كانت الطبعة الأولى عبارة عن ألفي نسخة. ولم يطبع من الكتاب طبعة ثالثة إلا بعد مرور سبع سنين.

كان هناك نمط آخر قد أخذ يتشكل، حيث كان على كونراد أن يواجه على نحو متكرر المزيج المحبط من التقدير النقدي والإهمال الشعبي.

في تلك الفترة كان قد بدأ يغازل "جيسي جورج" التي بدأ يقابلها منذ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام (١٨٩٤). ورغم أنه توقف مؤقتاً عن التودد إليها، ليغازل "مارغريت بورادوفسكا"، وربما ليجرب حظه مع فتاة فرنسية في العشرين من عمرها اسمها "إميلي بريكيل"، إلا أنه قام في النهاية بالتقدم لطلب يد "جيسي" في أوائل عام (١٨٩٥).

كان قد تعرف عليها عن طرق صديقه "ج. إي. هوب". وحين تزوجا في شهر آذار (مارس) كانت في الثانية والعشرين وكونراد في الثامنة والثلاثين. وأحسب ما أفادت به جيسي، فإن كونراد طلب يدها في "المتحف الوطني" بعد أن لجآ كلاهما إليه خشية المطر. في منتصف حديث عرضي، قال فجأة: "انتبهي إليّ يا عزيزتي. الأفضل لنا أن نتزوج فوراً ونسافر إلى فرنسا. متى تستطيعين أن تكوني جاهزة؟ خلال أسبوع... أسبوعين؟" وحتى يبدو أكثر جاذبية في نظرها، فقد قال لها أيضاً: أ) إنه لا نية لديه لإنجاب أطفال و ب) إنه ليس أمامه فترة طويلة ليعيشها.

يميل بعض معاصري كونراد ومعظم كتاب سيرته إلى الهجوم على جيسي كونراد. لقد سيقت ضدها حقيقة أنها كانت ضاربة آلة كاتبة وكذلك افتقارها إلى الالتزام الثقافي. ولاحقاً حين أصيبت بالبدانة فقد اعتبر ذلك على أنه دليل على إعطاء النفس هواها بشكل أحمق. كان يجب على كونراد أن يتزوج امرأة من العصر الإدواردي تكون مثل "سيمون دو بوفوار"، ولكنه خيب أمل الجميع بزواجه من امرأة تفهم تقلبات مزاجه، وتعرف كيف تتحمل

انفجارات غضبه الغريبة. من الصعب فهم العوامل الداخلية التي تؤدي إلى أي زواج، ولكن حسب أي معايير خارجية ملحوظة، فقد كان زواجهما ناجحاً.

في الحقيقة كان كونراد في حاجة إلى شخص يعتني به، خاصة بعد وفاة تاديؤش. فرغم أن جزءاً منه كان استقلالياً بشدة، إلا أنه كان في حاجة إلى الشعور بوجود من يهتم به، بل وحتى بشكل أمومي. لقد فهم غريزياً أن جيسي ستلعب هذا الدور. كانت أسرتها من النوع الصعب والمحب للجدال. وكان رد فعل جيسي أن أصبحت هادئة إنما بشكل عدائي: وهذه حقيقة كانت تضعها في موضع جيد لدى تعاملها مع كونراد. وكما توضح مذكراتها فقد كان كونراد يتطلب معاملة لبقة معظم الوقت. إن حقيقة أن بعض أصدقاء كونراد من العاملين في مجال الأدب كانوا يزدرونها بأسلوب تعاظمي لهو أمر يضر بسمعتهم ويعزز النظرة الشائعة بأن كون المرء مثقفاً لا يعني أنه يتمتع بالكثير من الذكاء.

على وثيقة الزواج كان كونراد ما يزال يصف نفسه كـــ "رئيس بحارة" رغم أن روايته الثانية "منبوذ الجزر" كانت قد نشرت قبل زفافه بأيام قليلة.

كُتبت هذه الرواية الثانية بسرعة نسبياً، مع تطوير لشخصيات وموضوعات "حماقة أولماير". ورغم أنها غالباً ما تُرى كتراجع عن الرواية الأولى، إلا أنها أكثر حدة وظرفاً. نادراً ما يُقدر حس كونراد الكئيب بالفكاهة حق قدره. يعيش نقيض البطل مع زوجته الملاوية وأسرته سيئة السمعة:

«كانوا من المولّدين وكسولين، وكان يراهم على حقيقتهم: رجال بثياب رثة وأجسام نحيلة، قذرون وذوو أحجام متوسطة ومن مختلف الأعمار، يتحركون في المكان دون هدف بشحاطاتهم؛ ونساء عجائز ساكنات جالسات بانحراف على كراسي الخيزران المتعفنة في زوايا ظليلة من شرفات يعلوها الغبار؛ وشابات نحيلات صفراوات البشرة، بعيون واسعة وشعور طويلة، يتحركن بفتور بين قذارة وقمامة منازلهن وكأن كل خطوة يقمن بها كانت آخر شيء لهن في هذه الحياة.

أصغى إلى مشاجراتهم الحادة وزعيق أطفالهم وقبع خنازيرهم. كما تشمم روائح أكوام القاذورات في باحات منازلهم وشعر باشمئزاز عظيم».

يبدو هذا وكأنه يتحلى بطاقة تشارلز ديكنز، إلا أنه ديكنز وقد أصبح زنخاً.

وكان النقاد مرة أخرى إيجابيين رغم وجود تعليق أو اثنين خلاف ذلك. يشكو "هـ. ج. ويلز" في مراجعته للكتاب دون ذكر اسمه:"السيد كونراد مسرف في الكلام. قصته لا تُروى بقدر ما تُرى بكل متقطع عبر غشاوة من الجُمل." لا يُتهم كونراد هنا للمرة الأولى (ولا الأخيرة) خلال سيرته ككاتب بأن أسلوبه يتطفل على سرد الحكاية. من اللافت للنظر أن كونراد حين اكتشف اسم من كتب تلك المراجعة كتب إليه رسالة مترعة باستثارة كبيرة. دافع عن نفسه بشكل شخصي:

«قد يكون أسلوبي فظيعاً – ولكنه يعطي مفعوله – وهو غير قابل للتغيير مثل مقاس قدميّ مثلاً، وأنا لن أخفيهما في حذاء من صنع ويلز (أو أي شخص آخر). ستكون تلك حماقة مطلقة. سأصنع حذائي بنفسي أو أهلك».

بالنسبة إلى كاتب غير ذي مراس نسبياً، تبدو ثقة كونراد بنفسه مدهشة. وقد أصبح صديقاً من نوع خاص لويلز، ولكنهما كانا ينقدان واحدهما الآخر. كان ويلز منزعجاً من الإخلاص الكهنوتي للفن الذي يبديه كونراد، ولم يتأثر كونراد بإيمان ويلز المستبشر بقيمة التقدم.

ارتحل كونراد بعد زواجه مباشرة إلى نورماندي. لا بد أن الاعتياد على كونراد كان صعباً بما فيه الكفاية، ولكن كان من المتوقع أن تقوم جيسي بأقلمة نفسها مع بلد أجنبي. تبقى دوافع كونراد لهذه الفكرة الطارئة غامضة. ربما أراد، شأن الكثير من الرجال المتزوجين، أن يتجنب الاحتكاك مع أقرباء زوجته، وربما أراد العزلة الاجتماعية ليتابع الكتابة.

استأجر منزلاً في "إيل غراند" قرب "لانيون" في نورماندي. كان الجانب المنزلي من الزواج يروق له، فمكان المرأة هو المطبخ، ولكنه كان مستعداً للانضمام إليها هناك.

«جيسي مسرورة *إلى* حد *هائل بالمطبخ*، وتنفق معظم وقتها وهي تحاول محادثة الفتاة *[الخادمة]* (وهذه كنز *كامل*). *المطبخ* رائع جداً ومجهز *على أفضل* نحو... *لذلك* ننفق فيه *أغلب أوقاتنا*...»

ثم يلاحظ أن هذا أول بيت حقيقي له.

لحسن الحظ، فإن الحياة الجنسية للمؤلفين الكبار كتاب مغلق باستثناء حالتين:"توماس هاردي" و "ريتشاردسون" اللذين صبّا خيالاتهما الجنسية في رواياتهما بأسلوب غزير. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال عن كونراد إنه خلال شهر عسله كتب قصة قصيرة هي "الأغبياء"، وتحكي قصة امرأة تطعن زوجها بمقص لتضع حداً لمعاشرته الجنسية لها بعد أنجبت منه أربعة أطفال معاقين ذهنياً. وهذا الدافع الفظيع كان سيعاود الظهور في رواية "العميل السري".

كان كونراد يجد صعوبة في إنهاء أي رواية طويلة. لقد تخلى عن رواية "الأخوات" بعد خمسين صفحة، أما "الإنقاذ"، وهو عمل آخر تدور أحداثه في الملايو، فقد كانت تتضاءل متحولة إلى هذر عفن.

كتب في ذلك الحين يقول: "تنتابني نوبات طويلة من الكآبة يمكن أن تسمى في مستشفى للمجانين بالجنون. "وقد وقع فريسة المرض على نحو حتمي: أولاً من الحمى (عادت الملاريا لتصيبه مرة أخرى)، ثم من النقرس، وكانت تلك حالة كريهة ومؤلمة ومزمنة وليست مضحكة كما قد يبدو عليه الأمر. في أيار (مايو) من عام (١٨٩٦)، أصيب بنوبة ارتعاش دامت أسبوعاً كاملاً. تتذكر جيسي "أسنانه المومضة وعينيه اللامعتين" وهو "يهمهم لنفسه

بلغة غريبة... وكان أمراً رهيباً حقاً بالنسبة إليّ كشابة غير ذات خبرة أن أتمكن من اختراق ذهنه الغائم أو أفهم كلمة واحدة مما كان يقوله."

وحتى تتفاقم حالة البؤس العام لديه فقد علم كونراد أنه فقد المال الذي استثمره في شركة جنوب أفريقية للتنقيب عن الذهب. كان الإرث من الخال تاديؤش قد تضاءل فلم يبق منه سوى بضع مئات من الجنيهات. في أيلول (سبتمبر) عادا إلى إنكلترا واستقرا أخيراً في "ستانفورد – هوب" على مصب نهر التيمز. ومن جميع النواحي، فقد كانت الفيلا نصف المتصلة كامدة وضيقة، ولكنها قريبة من منزل أصدقائهما "آل هوب".

ورغم حالة الانزعاج كان كونراد يعمل الآن على كتابة "زنجي النارسيسوس"، وهي رواية قصيرة ستعتبر أول روائعه. وعلى غير عادة كونراد كان واثقاً من قدرته وهدفه الفني كليهما. في العاشر من كانون الثاني (يناير) من عام (١٨٩٧)، كتب إلى غارنت يقول:

«مات الزنجي في السابع من الشهر الساعة السادسة مساء. السفينة لم تعد إلى الوطن بعد. من المتوقع وصولها الليلة وأن يدفع لها غداً. أخيراً! لا أستطيع تناول الطعام ... أحلم... بكوابيس... وأخيف زوجتي».

رغم صعوبة البرهنة على ذلك، إلا أن كلمة "nigger" (زنجي بالمعنى الازدرائي) كانت كلمة عامية في إنكلترا في ذلك الحين، ولكنها لم تكن تعتبر على أنها تحمل معنى الحطّ من القدر. كما أن الطبعة الأمريكية من الرواية، بالتباين مع ذلك، نشرت بعنوان "أطفال البحر".

تستكشف الرواية تضامن البحارة التجاريين على السفينة "نارسيسوس"، وكيف يهدد هذا التضامن "ويت" وهو متمارض يعاني من سل في مراحله الأخيرة، و"دونكين" وهو مهرج كسول، متلاعب وشرس. إنها أول رواية سياسية صريحة لكونراد، وهو يشرّح فيها علاقات السلطة المتحولة على متن السفينة؛ ولكنه يستكشف أيضاً علاقة بين الإنسان والعالم الطبيعي:

«إلى الأمام راح المراقب يقف منتصباً بين فراشتي المرساتين، وهو يهمهم لحناً لا نهاية له، مبقياً عينيه، كما يملي عليه الواجب، مثبتتين نحو الأمام في تحديقة فارغة. راحت نجوم كثيرة برزت من الليل الصافي تملأ فراغ السماء. كانت تلتمع كأنها حية فوق امتداد البحر؛ وأحاطت بالسفينة من كل جانب، أكثر حدة من عيون جمهرة محملقة، وغامضة كأرواح البشر».

افترض النقاد المعاصرون أن الكتاب سيرة ذاتية تقريباً. في الواقع هو عمل أدبي إلى حد كبير والدين لموباسان واضح بحد ذاته: تفاصيل موت "دجيمز ويت": تمليس البطانية، الخيطان من الدم، مشهد الموت المروع- كلها نراها في موت "فورستر" في رواية موباسان عن المجتمع الباريسي المنحط التي عنوانها "صديق لطيف". حين يموت فورستر تنغلق عيناه كمصباحين انقلبا معاً بضربة كاسحة. إنه كونراد بالطبع الذي يستخدم التشبيه الأكثر لفتاً للانتباه.

يبدو كونراد كأنه غير واع إطلاقاً بأنه يستعير من الكتاب الآخرين. في حزيران (يونيو) من عام (١٨٩٨) أرسل إلى غارنت نسخة من "زنجي النارسيسوس" مع رواية "صديق لطيف". ما يمكن استنتاجه هو أن الكتاب متجذر في كل من "الأدب" و"الحياة". كانت تجارب كونراد في الدراسة قوية بقدر تجاربه في البحر.

كتب كونراد مقدمة لـــ "زنجي نارسيسوس" تعدّ واحدة من أكثر كتابات النقد الأدبي شهرة، وفيها يشير إلى نواياه ككاتب وفنان وواعظ أخلاقي. ورغم أن هذه المقدمة مدينة لمقدمة موباسان لرواية "بيير وجان"، إلا أنها تتمتع باتجاه فريد في الرأي: يزعم كونراد أن "الفن محاولة سليمة النية لتقديم أسمى أنواع العدالة إلى الكون المرئي، وذلك بكشف الحقيقة، المتعدد منها والوحيد، الحقيقة الكامنة تحت كل مظهر من المظاهر." لذلك فإن مهمة الكاتب "أن يجعلك بقوة الكلمة المكتوبة تسمع وتشعر، وقبل كل شيء أن

يجعلك ترى." حتى الآن إنها نهاية القرن. ولكن ربان السفينة وكونراد الروائي متحدان بشكل غامض. فلو ينجح الفنان فسوف "يوقظ في قلوب النظارة ذلك الشعور بالتضامن الحتمي، تضامن الأصل الغامض، في العمل الشاق والفرح والأمل والمصير المجهول، الذي يوحد الناس واحدهم مع الآخر والبرية جمعاء مع العالم المرئي."

في آذار (مارس) من عام (١٨٩٧) انتقلت أسرة كونراد إلى "آيفي وولز" وهي عزبة من العصر الإليزابيثي. وقد أبدت جيسي بصيرة صادقة حين كتبت:

«*لقد مرّ بعض الوقت قبل أن يخطر لي أنه لا بدّ قد شعر بالعزلة عن الأشخاص الآخرين ممن لهم المعيار نفسه من الذكاء. كان الشخص الوحيد المتاح التواصل معه هو السيد هوب العزيز...*"

تدريجياً، راح كونراد يوسع دائرته الاجتماعية. في آب (أغسطس) من عام (١٨٩٧)، أصبح كونراد صديقاً مدى الحياة لـــ "روبرت بونتاين كنينغهام غراهام" الذي كان يزعم أنه من سلالة "روبرت الثاني" ملك اسكتلندا. طوال حياته، كان كونراد ينجذب إلى الشخصيات النشطة الجريئة. كان كنينغهام غراهام يكبر كونراد بخمس سنوات، وقد عمل في التنقيب عن الذهب في إسبانيا ومارس ركوب الجياد مع رعاة البقر في أمريكا الجنوبية. كما كان سياسياً محترفاً (عضو برلمان عن حزب الأحرار)، رغم أنه كان قد قرر حين التقى بكونراد أن "البرلمان سفينة من الحمقى..."

سياسياً، لم يكن ممكناً لهذين الشخصين أن يجدا منطقة حياد بينهما: وقد كان كنينغهام غراهام اشتراكياً، شخصاً يؤمن بإصلاح البشرية. أما كونراد فكان يستمتع بصب الاحتقار والازدراء على وجهة النظر الوردية هذه، وهاهو يقول بنشاط وتركيز للقلة من مراسليه الآخرين:

«أنت ومثالياتك عن الإخلاص والشجاعة والحقيقة، هذه المثاليات لا محل لها وإلى حد غريب في عصر الانشغالات المادية... أنت المثالي الأكثر يأساً... طموحاتك غير ممكن تحقيقها».

إلى حد ما (بأسلوب أرستقراطي ممطمط) أصبح كنينغهام غراهام ثورياً بالفكر وليس بالفعل. وقد ألهم كونراد ليعبر عن أكثر تأملاته تشاؤماً حين واجه فكرة أن الفكر السياسي قد يوفر موقع قدم آمن للعمل الأخلاقي:

«الإيمان أسطورة والمعتقدات تتقلب مثل ضباب على الشاطئ. الأفكار تتلاشى والكلمات ما أن تُلفظ حتى تموت...

في هذا العالم كما عرفته، فنحن مكتوب علينا أن نعاني دون أي ظل من ظلال العقل... من قضية أو من إثم...

لا توجد أخلاق سامية ولا معرفة ولا أمل ...

برهة، رمشة عين، ولا يبقى أي شيء... سوى كتلة من الطين ... من الطين البارد الميت مرمية في فراغ أسود، تدور من حول شمس منطفئة».

كان صعباً، على ما يُفترض، أن يفكر غراهام بجواب ملائم. يبالغ كونراد هنا جزئياً ليستفز صديقه، ولكن ليقوم أيضاً بتجارب على أفكاره. ولو أنه كان يؤمن حقاً بهذا الكلام، لما كان سيهتم بنشر كتاب آخر، ناهيك عن الاستثارة التي شعر بها (كما حدث فعلاً) حين حققت له إحدى رواياته مبلغاً يليق بأمير هو (٥٠) جنيهاً إسترلينياً. في تعبيره عن أكثر أفكاره تشاؤماً، كان قادراً على تجاوزها.

سرعان ما أنهى كونراد، بعد الانتقال إلى "آيفي وولز" في آب (أغسطس) من عام (١٨٩٧)، القصة القصيرة "العودة" المكتوبة بأسلوب هنري دجيمز. في هذه القصة تحاول الزوجة أن تهجر زوجها ولكنها تفشل. والمشكلة بين الاثنين هي غياب أي "اتصال". وحتى عندما يتاح لأي منهما، على حدة، لحظة كشف، يبقى الاثنان عالقين في انعدام الفهم المتبادل:

«بدت وكأنها تأثرت بالانفعال الذي في صوتـــه. ارتجفت شفتاها قليلاً ثم خطت خطوة متعثرة نحوه، وهي تمدّ يديها بإيماءة متوسلة، حين أدركت، في الوقت الملائم تماماً، أنه بسبب انهماكه بمأساة حياته قد نسي وجودها بشكل مطلق».

لم تنل القصة إعجاب غارنت واعتبرها كونراد نتاجاً أعسر. وهذا عار. فالكتابة هنا تتميز بتوتر لا يسود على الدوام الأعمال اللاحقة مثل رواية "حظ" و "نصر" حيث يعود فيهما إلى عدم الائتلاف الرومانسي والجنسي. لم ينل التصريح المقصود الذي تتضمنه "العودة" ما يكفي من التقدير.

في تشرين الأول (أكتوبر) من عام (١٨٩٧)، يدخل كونراد في علاقة صداقة حميمة أخرى مع الروائي الأمريكي "ستيفن كرين" ابن السادسة والعشرين عاماً. كانت رواية كرين "نيشان الشجاعة الأحمر" قد نشرت قبل ذلك بعامين. لا بد أن صفاء الرواية السلس وسردها الحيادي (الذي يكاد يكون تهكمياً) قد حازا على إعجاب كونراد الذي اعترف دائماً بأنه كان يكافح مع نثره باللغة الإنكليزية. كانت إصابة كرين بالسل قد وصلت إلى مرحلة متقدمة حين تعرف إلى كونراد، ولم يكن قد تبقى لديه سوى سنتين ليحياهما.

من الواضح أن كونراد كان يكنّ عاطفة عميقة لكرين. يتذكر إدوارد غرانت زيارته لكرين حين دخل كونراد فجأة لتناول الشاي:

«*شاهدته مع ستيفن كرين وكان مشرقاً بشكل بهيج وعابَثَ "ستيف المسكين" بأسلوب شديد اللطف والتعاطف، بينما جلس هذا صامتاً... ولكنه كان يقفز بين الحين والآخر فجأة ويسرّ بمشروع جديد ما بشعور يهز المشاعر بحدة... كانت إجابات كونراد المتشككة تصاغ بأرق لهجة وأكثرها ترددا. ما زلت أستطيع سماع ظلال الودّ الحزين لكرين وهو يصرخ: "جوزيف!"، وكذلك استمتاع كونراد بشخصية كرين، ذلك الاستمتاع الذي كان يشع في الدفء المشرق لعينيه البنيتين*».

ما كان يعجب كونراد هو حماسة كرين وبراءته؛ ولكن لم تكن أي من هاتين الصفتين تحملان شيئاً من السذاجة أو القسوة. وكما يبدو من كتاباته، فإن كرين يستطيع النظر إلى العالم بمباشرة نضرة. أما بالنسبة إلى كونراد، سيد الزوغان والتحاشي، فلا بد أن هذه الصفة كانت تؤثر به بشدة.

كما كانت لكرين "مغامراته"، وهذه كانت هي المفتاح غالباً، إن كان سيثار اهتمام كونراد: فكصحفي أرسل كرين تقاريره من فلوريدا عن تمرد كوبي ضد الإسبان، وكان قد هرع ليكتب لـــ "نيويورك جورنال" عن حرب أخرى بين اليونانيين والأتراك.

أعجب كونراد بكتابات كرين ولكن كانت لديه تحفظاته. فرغم أن كرين كان يعتبرها "موجزة" و "مترابطة"، إلا أنه كونراد اشتكى من أنها "لم تكن عميقة قط". "حين يقرأ المرء لا يجب أن تُطرح عليه الأسئلة. هو سيد ما يقرأه حتى آخر سطر من الكتاب ... ثم فجأة ودون سبب على الإطلاق يبدو وكأنه يتخلى عن زمام الأمور." قال لكنينغهام غراهام على نحو ملغز:"هذا الرجل يصف الكثير من النواحي الخارجية للأمور ودواخل بعضها."

استمر كونراد في العمل بتثاقل على قصة "الإنقاذ"، ولكنه بدأ يصاب بالإنهاك إلى حد كبير. وقد سعى يائساً إلى أن يكون كاتباً محبوباً يكسب الكثير من المال؛ ولكن من هذه الناحية كان النقاد شديدي النباهة:"السيد كونراد كاتب عبقري، ولكن اختياره للموضوعات والطبيعة غير المهاودة لأساليبه تمنعانه من أن يكسب الشعبية."

لم يتفهم حاجات القارئ المتوسط الذي يريد نهاية فيها القصاصات الملونة مفروشة على الصفحات الأخيرة بينما يتبادل الزوجان السعيدان القبل ويتصالحان. ونتيجة لذلك فإن الكثير من الروايات الكلاسيكية كان سيبقى بالنسبة إليه كتاباً مغلقاً مجازياً وحرفياً. زعم ويلز أنه كان يذرع المكان جيئة

وذهاباً وهو يهمهم:"ما هذه الضجة كلها حول "دجين أوستن"؟ ما الذي فيها؟ ما الأمر وما فيه؟"

وبينما كان كونراد يكافح لينهي قصة "الإنقاذ"، كانت رسائله تصبح أكثر فأكثر كآبة:

«*الحياة تمر وسوف تمر كحلم لولا أن الأعصاب مشدودة مثل أوتار الكمان. هناك شيء ما يلتوي ليدير البرغي*».

هذا "الشيء ما" في هذه الحالة كان حمل جيسي. ولد الطفل "بوريس" في ١٤ كانون الثاني (يناير) من عام (١٨٩٨). لم يكن كونراد حاضراً لدى ولادته. وبالفعل نعرف بالضبط ما كان يشغله: كان يكتب رسالة: "الإيمان أسطورة والمعتقدات أشبه بالضباب على الشاطئ: الأفكار تتلاشى والكلمات التي لفظت ذات مرة تموت... فقط يبدو خيط البديهيات وكأنما لا نهاية له. "وهنا يقطع هذا الابتهال ليضيف هذه الحاشية الغاضبة إلى نهاية الرسالة:

«*هذه الرسالة تخرب بريد الصباح لأن طفلاً ذكراً قد ولد وتسبب في حدوث جلبة كبيرة حتى إنّي لم أستطع سماع صفارة ساعي البريد. إنه تعليق جميل على الرسالة، ولكن الخلاص يعتمد على ما هو غير منطقي. ما زلت أشعر بالندم*».

على الفور تقريباً أصيب كونراد بالنقرس. وشأن الكثير من الأزواج، كره تغيير الروتين إلى حد الرعب. ورغم حقيقة أن جيسي كانت تقوم بالعمل المطلوب منها، إلا أنه أحب أن يدير منزله بأسلوب البحارة المحدد الواضح. لاحظ "ريتشارد كيرل" الذي أصبح صديقاً حميماً له ما يلي:

«*لم يفقد قط وضعية القبطان الذي يفكر في أن الأوامر يجب أن تطاع وأن العمل المنزلي يجب أن يسير بانتظام ويسر كسفينة في البحر!*»

كان كونراد يستمتع باستخدام المصطلحات الملاحية في أكثر المواقف المنزلية حميمية، وكان ذلك يثير سرور أو غضب الأسرة أو الأصدقاء. تذكر

"جون كونراد"، أصغر ابنيه، أن "أبي لم يكن يحب أن يملأ طبقه حتى الحافة فيبدو مثل شحنة على متن باخرة جوالة." وحتى يستمتع المرء بالطعام فإن عليه أن يترك " القليل من حيّز التخزين فارغاً وألاّ يُحمّل حتى الحرف الأعلى من جانب المركب." بعد أن وقعت جيسي وأصيبت في ساقيها، سمى عكازيها بـــ "الطوف الموصول بقارب بعمودين."

لم يحسّن وصول بوريس كثيراً من مزاج كونراد. في رحلة بالقطار لزيارة ستيفن كرين وزوجته، وافق كونراد على السفر مع جيسي والطفل في المقصورة نفسها، ولكن كما لاحظت جيسي "لم يكن علينا أن نلمح إطلاقاً إلى أنه كان ينتمي إلى مجموعتنا الصغيرة." ويا للأسف على أفضل الخطط التي وضعت. لقد نسيت شقيقة جيسي الأمر الأرستقراطي وطلبت منه أن يناولها زجاجة الطفل من الرف الذي فوق رأسه. "لقد ارتجت العربة كلها من المرح المكبوت".

في النهاية وجد كونراد حلاً لورطته الإبداعية بأن ابتكر شخصية "مارلو" الذي هو ذاته البديلة. استخدمه أولاً بشكل جيد في قصة "شباب"، وهي عبارة عن إعادة سرد مجمّلة لرحلة كونراد على السفينة "فلسطين" "Palestine"، (عاد فسماها "اليهودية" "Judea")، ويبدو أنه أكمل كتابة القصة في أيار (مايو) من عام (١٨٩٨).

من خلال مارلو يستطيع كونراد أن يسرد الأحداث ويتأمل فيها، فيشبك الفعل ورد الفعل، بحيث يصبح مستحيلاً فصلهما الواحد عن الآخر. وعلى نحو لا يثير دهشتنا، تستفيض قصة "شباب" في الثناء على الشباب وفقدانه:"أوه يا لروعة الشباب! يا لنيرانه، إنها أكثر إبهاراً من لهيب سفينة تحترق ترمي بنور سحري على الأرض الواسعة، وتقفز بجرأة إلى السماء، ثم تنطفئ مع مرور الزمن وتصبح أكثر كمداً وقسوة ومرارة من البحر... وشأن لهيب السفينة المحترقة فإنه محاط بليل قاتم الأعماق."

ربما تكون قصة "شباب" أكثر أعمال كونراد تفاؤلاً، حتى ولو أنها تذكّرنا بأن المرء حين يكون شاباً، فهذا يعني أن ذلك مقرون "بالقوة وبرومانسية الأوهام". في قصتيه التاليتين، يصبح دور مارلو أكثر تعقيداً وغموضاً.

خلال مكوثه مع إدوارد غارنت في أيلول (سبتمبر) من عام (١٨٩٨)، قابل كونراد الكاتب الذي سيكون له أعظم تأثير على أعماله، إن لم يكن على حياته أيضاً، ألا وهو "فورد مادومس فورد". كان فورد في الرابعة والعشرين من العمر وقد سبق له ونشر بعض الأعمال. وبما أنه كان حفيداً لرسام سبق عصر "رافائيل" وابناً للناقد الموسيقي لصحيفة "ذا تايمز"، كان فورد في قلب المؤسسة الفنية الفيكتورية ولديه براعة في صنع شبكات من العلاقات، وقد تزوج من "إلسي مارتينديل" التي وصفها "ديفيد غارنت" بأنها "ناهدة الصدر وسمراء ببشرة ذات لون غني كدراقة ناضجة."

أعجب فورد بكونراد على الفور وعرض عليه أن يستأجر من الباطن منزله المؤجر المسمى "بنت فارم" في"بوستلينغ" في مقاطعة "كنت". قبل كونراد وزوجته هذا العرض السخي وانتقلا إلى ذلك المنزل في ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر). ورغم أن المنزل بدا أولاً وكأنه دون ماء وغاز وكهرباء، إلا أنه كان جميلاً، كما أعجب كونراد بالمناظر التي يطل عليها:

«*الريف ذو ألوان كالبني والأصفر الفاتح... وبينهما، على مبعدة، يستطيع المرء أن يرى المروج خضراً كالزمرد*».

إذا أخذنا في الحسبان أن جزءاً كبيراً من طفولة كونراد قد قضيت وهو منفي في أراضي اليباب الروسية، فإن عدم توفر القليل من مناعم العيش لن يبرهن على أنها أمر يصعب التغلب عليه. وكما جرى دائماً، فقد كان على جيسي أن تبذل قصارى جهدها. ينزع كتّاب سيرة كونراد إلى جَلْد فورد بالأحرى. فهو يُرى كانتهازي موهوب على وجه الإمكان، وأنه اغتنم الفرصة

ليستغل كاتباً عبقرياً حتى يصل إلى مبتغاه، ألا وهو العمل على إنجاح مهنته. من المفيد أن نتذكر أن فورد نفسه كان كاتباً من الطراز الأول، وتستحق روايتاه "جندي شجاع" و "نهاية الاستعراض" أن تُعدّا بمستوى أفضل روايات كونراد. مع أن مذكرات فورد تمطمط الحقيقة، فإنه لجدير بالذكر أن كونراد نفسه لم يكن ضد العبث بالحقائق لو ثبت أنها غير ملائمة.

لا شك أن فورد كان شديد التعلق بكونراد على الدوام. وهو يتذكر أول لقاء بينهما كما يلي:

«كانت له حركات رجل فرنسي يهز كتفيه كثيراً. وبعد أن تلفت انتباهه حقاً، فهو يضع مونوكلاً على عينه اليمنى ويحدق في وجهك متفحصاً إياه عن قرب كما يفعل الساعاتي وهو يفحص جهاز حركة الساعة... كان يتحدث بطلاقة كبيرة وتمييز وصحة في بناء الجملة، أما كلماته فكانت دقيقة بشكل مطلق من حيث المعنى إلا أن تشديده على الألفاظ كان يعاني من الكثير من الأخطاء حتى ليصعب فهم ما يقوله أحياناً. أما استخدامه للظروف (adverbs) فكان شاذاً على الأغلب... كان يومئ بيديه وكتفيه حين يرغب في التأكيد على كلامه، ولكنه حين كان ينسى نفسه خلال حرارة الحديث، كان يومئ بجسده كله...»

من الواضح أن كونراد لم يفقد لكنته "الأجنبية الثقيلة" قط، وهي لكنة كانت تميزه، ومع ذلك لم يكن ممكناً تحديد ماهيتها. وما أن سأله (ابن ريتشارد كيرل) عن رأيه بالمنظر الذي يطل عليه منزله، قال:" Too many "orcs، وهنا حل الصمت على جميع الحاضرين إلى حد كبير. كان يقصد oaks (أشجار السنديان).

من أصعب المسائل على الحل اكتشاف من كان النور الهادي وراء تعاون فورد/كونراد. في النهاية كانا سيتشاركان في كتابة ثلاث روايات: "الورثة" (١٩٠١) و "رومانس" (١٩٠٣) و "طبيعة جريمة" (١٩٢٤). ومن

بين ميزات السكن في "بنت فارم" أن كونراد وجد نفسه في عش من الكتاب الشهيرين كان معجباً بمعظمهم: فبالإضافة إلى "ويلز" (من سكان سندغيت) كان هناك كيبلينغ (من سكان روتينغدين) وأعظم الأدباء طراً "هنري دجيمز" الذي كان يسكن في "راي". لم يكن بمقدور أي فرد من هذه المجموعة أن يتخيل أن كونراد اقترح فكرة التشارك في الكتابة مع مادوكس، وافترضوا أن فورد هو الشرير الذي يغتنم الفرص كالعادة. وبالفعل فإن دجيمز صُدم واستهول الأمر رافعاً يديه إلى الأعلى، وهو سلوك وجده ملائماً على نحو خاص في مرحلته الأخيرة:

«*بالنسبة إليّ هذا أشبه بكابوس يحكيه المرء على الإفطار! إن تراثهما ومواهبهما مختلفة جداً. التعاون بينهما أمر لا يمكن تصوره بالنسبة إليّ*».

والحقيقة هي أن الفكرة خطرت لكونراد الذي كان معسراً في المال كعادته. كتب إلى "و.ي. هنلي" رئيس تحرير "ذا نيو ريفيو" يقول:

«*لدى محادثتي مع فورد كانت فكرتي الأولى أن هذا الرجل الذي لا يستطيع أن يجد ناشراً لديه مادة جيدة للاستخدام وأننا لو عملنا عليها معاً، فإن اسمي قد يجد ناشراً لها على الأرجح. ومن ناحية أخرى، فكرت في أن العمل معه سيخضع الشيطان الخاص الذي يفسد عملي ما إن أبدأ به... وبما أن المادة هي من النوع الذي يلائم مخيلتي والرجل عامل شريف، فسوف نخرج بشيء محتمل... على الأرجح*».

مهما تكن الحقيقة بالضبط، فقد اعتقد كونراد أنه القائم بالأمر. والحقيقة البسيطة هي أنه أراد كتاباً يحقق أفضل المبيعات، وبدا أن فورد سيزوده بوسيلة توصله إلى تلك الغاية بالذات. وإضافة إلى ذلك، كان التعاون في الكتابة قد تم بنجاح من قبل كل من "ألكسندر دوماس" و "روبرت لويس ستيفنسون". كما أنه من الممكن أن فورد استطاع مساعدة كونراد ليتمكن هذا

من إتقان لغة إنكليزية أكثر عامية ومرونة. وكانت "فايولت هنت"، التي أضحت عشيقة لفورد، هي التي أدارت الشراكة دون شك:

«كان فورد يجلّ كونراد. لم أسمعه يذكر كونراد إلا بأكثر كلمات المودة إجلالاً. أما في مسائل الأدب، فلا شك أن موقفه كان خانعاً بشكل قاطع».

كما كان فورد يجلّ كونراد، كان كونراد يجلّ "هنري دجيمز"، ككاتب وكإنسان. وكانت أول مفاتحة بذلك أنه أرسل إليه نسخة مهداة بعناية من رواية "منبوذ الجُزر". في شباط (فبراير) من عام (١٨٩٧)، رد عليه دجيمز برسالة لها الدرجة نفسها من الإطراء كتبها على الورقة البيضاء الأولى من روايته "مغانم بوينتون". وحين التقيا أخيراً تعاملا بمنتهى اللباقة حتى أنه ليصعب معرفة ما كانا يقولانه. ولأسباب بقيت مجهولة إلى الأبد بالنسبة إلى أولئك الذين شاهدوا هذه الغطرسة الأدبية وهي تفعل فعلها، فقد تخاطب الأديبان بالفرنسية: كان كونراد ينعق بالفرنسية: "يا معلمي العزيز" بلهجة أهل مرسيليا الثقيلة، بينما كان دجيمز يرد عليه بتنازل رفيع قائلاً: "يا زميلي العزيز."

ربما وجد دجيمز أن سلوك كونراد العصبي القابل للاستثارة يضعه في حالة من الضيق أكثر من المعتاد. وربما شعر أن كونراد توقع منه أكثر مما كان قد تحضر له أو يستطيع تقديمه. ومهما تكن الأسباب، فإن العلاقة ذوت ولم تزدهر في الحقيقة. في مقالة كتبها كونراد عن دجيمز عام (١٩٠٥)، وصفه فيها بأنه "مؤرخ الضمائر الجميلة." ثم تابع ممتدحاً دجيمز، ولكنه ألقى أيضاً الضوء على بعض مواطن الضعف المحتملة:

«*لقد استحوذ على البلد، على هذا الميدان، وهو ليس بالقفر فعلاً، بل مترع باللمحات الرومانسية والظلال العميقة والأماكن المشمسة. لا توجد أسرار تركت ضمن مجاله. كشفها كما يجب أن تُكشف... أي على نحو جميل. وبالفعل، ليس للبشاعة سوى حيز صغير في هذا العالم الذي ابتدعه*».

يتضح من هذا كله أن كونراد كتب أنه يعتقد بأن غياب البشاعة لا يمكن عدّه إلا تشويهاً متعمداً للحقيقة.

في ٣ حزيران (يونيو) من عام (١٨٩٨)، يشير كونراد في رسالة للمرة الأولى إلى "لورد جيم". كان نشوء هذه الرواية مطولاً ومؤلماً، حتى بمعايير كونراد. في شباط (فبراير) من عام (١٨٩٨) يطمئن كونراد ناشره الجديد "بلاكوود" أنه يتجه إلى إتمام تأليف الرواية التي كان يفترض أنها ستكون قصيرة (ما بين ٢٠-٣٠ ألف كلمة)، إلا أنه كان قد بدأ في ديسمبر (كانون الأول) الماضي في العمل على "قلب الظلام". ويبدو أن "لورد جيم" و "قلب الظلام" قد كتبتا بالترادف، وأن كونراد كان يستكشف أفكاراً متشابهة في كلا العملين في آن معاً. ولكن "قلب الظلام" انتهت أولاً. وقد أتم (٣٨٠٠٠) كلمة في السادس من شباط (فبراير) من عام (١٨٩٩). ثم نشرت مسلسلة في مجلة "بلاكوود" مع مقدمة بأداة التعريف.

تبقى "قلب الظلام" أشهر روائع كونراد، وليس ذلك فحسب بسبب اقتباسها الخيالي من قبل المخرج "فرنسيس فورد كوبولا" لفيلمه "القيامة الآن". إنها حكاية تقدم شيئاً ما لكل شخص: رحلة غريبة وعنصرية وغيبيات وسياسة، وكلها تُقدم بالتباس متحول.

للقصة راو لا اسم له يصغي (كما آخرون) إلى "مارلو" وهو يقص حكايته بينما ينتظرون على نهر "التيمز" حتى يأتي مدّ ملائم. يحذرنا منذ البداية أنه بالنسبة إلى مارلو فإن "معنى الحادثة لم يكن في الداخل كبذرة بل من الخارج يغلف الحكاية التي تبرز المعنى فقط كما يبرز الوهج الغبش.

يفتتح مارلو الحكاية بالتأمل في التجربة الاستعمارية للرومان في بريطانيا، رغم أنه لا يحب أن يسميهم بالمستعمرين:

«*كانوا غزاة، ولذلك أنت في حاجة إلى القوة الوحشية فحسب: لا شيء للتبجح به، بما أن قوتك مجرد حادث ناجم عن ضعف الآخرين... إن غزو*

الأرض، الذي يعني الاستيلاء عليها من قبل أولئك الذين لديهم لون بشرة مختلف عن لون بشرتنا، أو أنوف أكثر تسطيحاً من أنوفنا، ليس بالأمر الجميل حين تتمعن فيه جيداً».

تتحكم هذه الملاحظات بقراءتنا لتجارب مارلو.

يجد مارلو نفسه في بلجيكا عاطلاً عن العمل. يحصل على عمل في الكونغو بمساعدة عمته. يتم إظهار الرجل الأبيض على أنه غير كفؤ وقاس وكسول ويعطي نفسه قيادها. أما الكونغوليون فيصورون كعبيد مثيرين للشفقة: "كنت أستطيع رؤية كل ضلع من أضلاعهم وكل مفصل من مفاصل أعضائهم كأنها عُقد في حبل. وكل واحد منهم كان قد أُلبس ياقة من الحديد على عنقه والكل متصلون الواحد مع الآخر." إن مشكلة مارلو التي لا يعبر عنها أبداً أنه، كمستخدم لدى الشركة، مسؤول جزئياً عن كل ما يراه. وفضلاً عن أنه مراقب غير مبال، إلا أنه يمد يد العون إلى الإمبريالية البلجيكية. وحتى يبقي هذه الفكرة بعيدة فهو يتورط مع السيد "كورتس". كورتس عميل من الدرجة الأولى مسؤول عن مركز تجاري يجمع من العاج أكثر من أي مركز آخر. كما أن كورتس مثقف ليبرالي يذهب إلى الكونغو باسم المدنيّة والتقدم.

ثم تتخذ الحكاية شكل استكشاف للنهر، ليس بحثاً عن كنوز الملك سليمان أو غوريلا هائلة الحجم، بل عن مصلح ذكي طيب القلب تحول كما يبدو إلى وحش. حين يجد مارلو كورتس في قلب الداخل، فمن الواضح أن هذا كان يمارس "طقوساً يعجز التعبير عنها". كانت رؤوس بشرية قد تم تقليصها لتحيط بكوخه. "لقد عانقته البرية...أخذته وأحبته وعانقته ودخلت في شراينه واستهلكت لحمه وختمت روحه."

هنا يصبح عهد كورتس الفاوستي مع البرية واضحاً. فالذي فعله حقاً يجب أن يُستنتج: يبدو أنه كان يُعبد كإله ويعاشر عشيقة من السكان الأصليين،

ومن المحتمل أنه كان متورطاً بأكل لحوم البشر. خلال رحلة العودة، يموت كورتس وهو يتلفظ بالكلمة الخالدة مرتين، وهي صرخة لم تعد أكثر من همسة: "الفظاعة! الفظاعة!" إن أهمية هذا الفهم تُترك معلقة. وحين يعود مارلو أخيراً إلى إنكلترا، نصف ميت من المرض، يزور خطيبة كورتس ويعيد كتابة موت كورتس وفق أسلوب الرواية الفيكتورية العاطفية السخيفة. ينظر مارلو، الذي يتفاخر بأسلوبه في قص الحكايات، في عينيها، بحسب ما هو واجب ويقول للخطيبة: "آخر كلمة تلفظ بها كانت... اسمك!"

يكذب مارلو ليدعم كورتس، وهو يبرم عهداً معه، كما أبرم كورتس بكل تأكيد عهده مع البرية. حين يتوقف مارلو عن الكلام، يدرك الراوي أن المدّ قد جاء ومضى: لقد شلّتهم حكاية مارلو. هذه لمسة تهكمية لطيفة، لأن مارلو سرعان ما يكرر مسؤوليات العمل، ومع ذلك فهو قد منع الآخرين من متابعة أداء واجباتهم.

ولأن "قلب الظلام" تكشف سطحية النوايا الحسنة حين تواجه بدوافع بدائية، إلا أنها بدت متنبئة بالممارسات الوحشية التي عانت منها أوروبا في منتصف القرن العشرين. كما عرف كشفها لدوافع الجشع الكامنة خلف التوسع الاستعماري الكثير من المديح حين تهاوت الإمبراطوريات الأوروبية العجوز متحولة إلى مجرد تسويات وانسحابات. استثنى كونراد البريطانيين من هذه الانتقادات ، وبقي بريطانياً وطنياً ووفياً: فلأنّه عانى من الاستبداد الروسي، ها هو يثمّن الحرية الديموقراطية إلى حد يكفي ليتعامى عن ممارسات مواطنيه الذين تبنى جنسيتهم رغم أنه كانت لديه شكوكه فيما يخص سلوك البريطانيين في حرب البوير[1]:

«*إن كنت سأصدق كيبلينغ حين قال إن هذه حرب خيضت من أجل قضية الديموقراطية، فهذا يثير الضحك*».

---

(١) الحرب التي دارت بين الجيش البريطاني والسكان من أصل هولندي (البوير) في جنوب أفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر. (المترجم)

ومن ناحية أخرى سرعان ما يوضح القضية بأن يقترح قائلاً:"لم تكن هذه حرباً ضد الترانسفال بقدر ما كانت نضالاً ضد تصرفات الألمان. إنهم الألمان من تسبب في هذه القضية."

إن الحاجة إلى الدفاع عن وطنه الجديد المتبنى قد أربك كونراد ، فهاهو يقر في رسالة إلى ابن خاله البولندي قائلاً:

«قد يقال الكثير عن الحرب. مشاعري معقدة جداً... كما قد تكون أنت قد حزرت لنفسك. لا شك أن البوير يناضلون عن إيمان في سبيل استقلالهم. ولكنها أيضاً حقيقة أنه ليست لديهم أي فكرة عن الحرية التي لا يمكن أن توجد سوى تحت العلم الإنكليزي في كل أنحاء العالم».

تعود كراهيته للهولنديين إلى تلك الأيام التي قضاها في الشرق الأقصى. لا شك أن الحرب في جنوب أفريقيا سببت له الكآبة، كما سببها له البطء في تقدمه في كتابة رواية "لورد جيم". كتب إلى "تيد أندرسون" بلهجة القنوط المؤلم:

«*أحاول الآن إنهاء قصة بدأتها في تشرين الأول (أكتوبر) Blackwood No.*[1] *أعمل عليها يوماً بعد يوم، وأريد طوال اليوم وفي كل دقيقة من اليوم، أن أكتب حكاية حقيرة مؤلفة من كلمات أو ألا أكتب أي شيء إطلاقاً... وحين أنهيها... سيكون عليّ أن أتابع فوراً وأكتب مرغماً عشرين ألف كلمة إن كان الصبي سيحصل على الحليب وأنا على الجعة (هذه استعارة ، فأنا لا أشرب الجعة بل الشاي المخفف وأتوق إلى تناول الشمبانيا)، هذا إن لم يكن العالم سيصل إلى نهايته على نحو مطلق*».

يحول كونراد الكتابة إلى واجب مؤلم: فهو لا يرى الكتابة كتحليق عابث للمخيلة، بل كمهمة جدية لا بد من إنجازها بعناية. كأنما عاد هو إلى المتن الدوار لسفينة تجارية عالقة وليس أمامه سوى طقس عاصف.

---

(١) هكذا وردت ولم أجد لها معنى. (المترجم)

كانت الحياة المنزلية في "بنت فارم" متمركزة على كونراد الذي لم يكن يتوجب إزعاجه وهو يكتب. وهذا يبدو معقولاً باستثناء أنه كان يعمل في ساعات غير منتظمة كلما جاءه الإلهام. لم يكن كونراد يتحلى بالتنظيم الفخم الذي عرفه "أنتوني ترولوب". تتذكر جيسي أنه في إحدى المرات:

«*تسلل إلى غرفة الطعام وهو يطلب بإيجاز أن أحضر له على الفور جرعة من دواء النقرس. ثم أعلن للجميع كلاً وإفراداً عن نيته الذهاب إلى الغرفة المجاورة ومحاولته أن يرتاح. تمنى أن يترك وحيداً هناك... متجاهلاً تماماً ضيوفه الذين بدت عليهم علائم الانزعاج، وأغلق الباب إثر الباب من خلفه بعنف كبير...عاد لاحقاً للظهور منتعشاً بعد قيلولته، ومستعداً تماماً ليكون لطيفاً، وقد تلاشى غضبه ونقرسه الذي هدد به!*».

المرة تلو الأخرى يكشف كونراد عن مزيج مربك من الاستغراق في النفس ومعالجة الذات بشكل درامي. لو كان طفلاً صغيراً لأُتّهم بأنه كان يحاول جذب الانتباه إلى نفسه. كانت لديه عادة طفولية تتجلى في صنع كرات من الخبز ورميها في أنحاء الغرفة. تتذكر جيسي "أنه كلما ازدادت استثارته أو غضبه كلما كان أسرع في رمي مقذوفاته، وكان أولئك الذين هم ضمن خط النيران ينظرون إلى مضيفهم بتقدير!" يصعب تصديق أن هذا هو كونراد نفسه الذي كان قادراً على أن يعامل هنري دجيمز بتهذيب خارق للعادة.

انتهى من كتابة "لورد جيم" في الصباح الباكر من يوم الرابع عشر من تموز (يوليو) من عام (١٩٠٠)، ووصل عدد كلماتها إلى مائة وأربعين ألف كلمة: كتب إلى "غولزويرذي" وهو يصف اللحظات الأخيرة المؤلمة من ميلاد الرواية:

«*انتزعت نهاية "ل. ج." بجهد متواصل دام (٢١) ساعة. أرسلت زوجتي وطفلي بعيداً عن المنزل (إلى لندن) وجلست الساعة التاسعة صباحاً بتصميم يائس على إنهائها. بين الحين والآخر كنت أتمشى من حول المنزل*

خارجاً من أحد الأبواب لأدخل من آخر. تناولت وجبات دامت كل منها عشر دقائق. صمت كبير. أعقاب اللفافات راحت تتراكم في كومة تشبه جثوة على قبر بطل. تطلع القمر الذي أشرق من فوق الحظيرة عبر النافذة ثم اختفى عن الأنظار. حل الفجر وأنار المكان. أطفأت المصباح وتابعت الكتابة. وبينما عصف نسيم الصباح بأوراق المخطوطة فنثرها في جميع أنحاء الغرفة. أشرقت الشمس. كتبت آخر كلمة وذهبت إلى غرفة الطعام. الساعة هي السادسة. تناولت قطعة من لحم الدجاج البارد وشاركت بها "إسكميلو"...»

كان احتفال كونراد مع الكلب كئيباً مع شيء من السلوان.

كانت "لورد جيم" أكثر روايات كونراد تعقيداً وعمقاً حتى ذلك الحين. ليس "جيم" مثقفاً شأن "كورتس"، ولكنه يعاني على نحو مشابه من خيانة الذات: يؤدي غياب المعرفة الذاتية بالشخصيتين كلتيهما إلى تصرفات في منتهى الجبن. يتخلى كورتس عن مثالياته وجيم عن واجبه المهني.

تفتتح الرواية بنفحة قوية من السخرية المريرة حين يشرّح إدلالات تربية جيم:

«أتى في الأصل من منزل قسيس. وقد أتى الكثير من ربابنة السفن التجارية الجيدين من مثل مساكن الورع والسلام هذه. كان والد جيم يمتلك مثل تلك المعرفة االيقينية بالمجهول كما هو مصنوع لتقوى سكان الأكواخ دون إرباك راحة ذهن أولئك الذين يمكنهم الرب القادر المعصوم عن الخطأ من السكن في الدور الفخمة... كان جيم واحداً من خمسة أبناء، وحين أعلنت مهنته كبحار عن نفسها بعد مرحلة من دراسة أدب العطل الخفيف، فقد أرسل على الفور إلى سفينة تدريب لضباط البحرية التجارية».

(هل يشك كونراد في أنه هو نفسه اختار البحرية التجارية فقط لأن فينيمور كوبر وماريات كانا يملآن رأسه؟).

منذ البداية نحن على وعي بأن جيم ارتكب جريمة ما. وحين ينتقل المنظور نحو مارلو وقصته عن القضية في المحكمة، نعلم أن جيم وبقية الطاقم قد تخلوا عن مجموعة من الحجاج على سفينة صدئة شديدة الازدحام اعتبروا أنها ستغرق. حين جوبه بحالة طارئة فجائية انهارت أعصاب جيم، كما حدث سابقاً ذات مرة حين كان ما يزال بحاراً متدرباً. يقول لمارلو كيف أنه تخلى عن السفينة. "لقد قفزت..." ثم تماسك وأشاح بنظره... "هكذا يبدو"، هذا ما أضافه.

تضاعف الشعور بالذنب مع التهرب من المسؤولية أمر مقلق بقدر إدراك مارلو أن جيم "واحد منّا." ولكننا لا نعرف أنفسنا إلا حين نُمتحن، إنما لحسن الحظ لا يُطلَب إلى أحد منا قط أن يقدم برهاناً على الشجاعة. يجد مارلو قصة جيم وهي تقضم يقينه الأخلاقي هو نفسه.

تحكي الرواية قصة محاولات جيم للتكفير والتوبة. ولأن عالم كونراد خال من السلوان الديني، يبدو هذا ككفاح. بمساعدة "ستاين"، الفيلسوف وعالم الحشرات، يُرسل جيم إلى مركز تجاري معزول في "باتوسان"، وهي منطقة نائية من الملايو تحت سيطرة حكومة من السكان المحليين.

تحليل ستاين لجيم يمكن أن يكون هو تحليل كونراد لنفسه وهو بعد شاب في مرسيليا:"أفكاره ستكون مترعة بالأفعال الشهمة: كان يحب تلك الأحلام والنجاح في إنجازاته المتخيّلة... كانت تتحلى بفحولة جميلة، بفتنة الغموض، وقد راحت تمر أمامه بمشية بطولية... لم يكن أمامه أي شيء لا يستطيع مواجهته."

من بعض النواحي تعتبر رواية "لورد جيم" وثيقة الصلة بكونراد، بل أقرب ما تكون إلى رواية "صورة الفنان شاباً"[1]: ولكن تصوير كونراد لذاته

---

(١) رواية لدجيمز جويس.

أكثر تدميراً بكثير من تلميحات جويس المغيظة المحببة عن ستيفن ديدالوس/ جويس. "لورد جيم" أقل اهتماماً بالخيانة من اهتمامها بافتقار البطل الرهيب إلى فهم الذات. في الصفحات الأخيرة من الرواية، حين يموت، وهو أشبه بنوع من "كورتس" محب للخير، مدافعاً عن السكان الأصليين ضد الشرير الكرتوني "جنتلمان براون"، لا يتمكن جيم من فهم أن تضحيته بنفسه المصنعة بعناية لا تبرهن على أي شيء: إن كان اختبار شخصية الإنسان هو باللامتوقع، إذاً فإن خروج جيم المأساوي الذي تمت مسرحته بعناية لا يمحو إثم تخلّيه عن الحجاج. "يموت تحت سحابة، غامض القلب ومنسياً وغير مغفور له ورومانسياً إلى حد كبير."

كان "تخلي" كونراد عن بولندا يُرى أحياناً على أنه مفتاح افتتانه بمحنة جيم، لأنه كتب عن رحيله على أنه "قفزة": "أعتقد حقاً أن حالتي كانت هي الوحيدة التي تتعلق بفتى من جنسيتي وأسلافي يقوم بقفزة دائمة، كما يقال، بعيداً عن محيطه وعلاقاته الجذرية." إن التحليل الذاتي الذي يقوم به كونراد أعمق من ذلك: "يرى نفسه متعلقاً بشكل مرضيّ بمثاليات غير ممكن تحقيقها وأنه مقدر عليه دائماً أن يفسدها: مثاليات في السلوك والعمل والطموح الأدبي. تعطي "لورد جيم" مفتاحاً لإحساس كونراد العنيد بالفشل ما أن يضع قلمه على الورق.

ظهرت الحلقة الأخيرة من "لورد جيم" في ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) من عام (١٩٠٠). في البداية وصف الكتاب بأنه "أعظم أعمال المؤلف" وأنه "أصيل تماماً" وأنه أدخل كونراد إلى "الصف الأول من الروائيين الأحياء". ولكن كان هناك أيضاً تحفظات: شعر النقاد بالقلق من الأساليب المتضمنة في السرد كما أعول "أرنولد بنيت" من أن "لورد جيم" كانت "أكثر من صعبة على القراءة". نفدت الطبعة الأولى من الرواية في شهرين، أما الثانية فخلال أربع سنين: لقد ازدادت شهرة كونراد، ولكن رصيده في المصرف لم تظهر عليه

علامات التحسن. خلال أشهر كان كونراد يستدين من شركات التأمين، ومن ناشره "بلاكوود"، ومن أي شخص كان مستعداً لمد يد العون.

كان كونراد يوضع الآن في سياق واحد مع "راديارد كيبلينغ" على أنه كاتب روايات رومانسية غريبة وطريفة. وهذا ما كان يغضب كونراد الذي كان معجباً بموهبة كيبلينغ إلا أنه يكره نزعته الانتصارية المحافظة. في رسالة إلى "كنينغهام غراهام" هاهو يمزج الاحتقار الرقيق بصلف متميز:

«*للسيد كيبلينغ حكمة الأجيال العابرة وهو يحافظ عليها بإخلاص تام. تتحلى بعض أعماله بشكل معصوم عن الخطأ، وبسبب ذلك الشيء الصغير فهو لن يبقى في جهنم إلا لفترة قصيرة جداً. فهو يتغامز مع بقية أمثاله الممتازين*».

بعد أن أنهى "لورد جيم"، قرر كونراد أن يصطحب أسرته في عطلة مع فورد بينما كانا يعملان معاً على كتابة "سيرافينا". كانت عطل أسرة كونراد ملعونة في العادة. لم تكن "بروجز" و "أوستند" من الأماكن الخطرة على الأغلب، ولكن من الغريب تماماً أن بوريس ابنه كاد يموت خارج "أوستند" بعد أن أصيب بالزحار. حتى جيسي اضطرت إلى الاعتراف بأن فورد كان ذا سلوك مهذب:

«*لقد استحق امتناني وتقديري بالأسلوب الذي عبر به عن تعاطفه العملي. كان على الدوام مستعداً لتقديم يد العون بأن ينقل مريضاً صغيراً ويحضر طبيباً أو يساعد في التمريض*».

وكما كان سيكشف لاحقاً في تعامله مع زهرة حركة الحداثة، فقد كان فورد إنساناً لطيفاً.

لدى العودة إلى "كنت" استمر التعاون الأدبي، ولكن ذلك كان يثير هلع جيسي التي اكتشفت أن وجود مؤلفين اثنين في كوخ صغير أمر مثير للمشاكل. كانت هِنات أكثر من كافية، كما عبرت جيسي عن ذلك بلهجتها المعتادة المتصفة بحنق متحكم به:

«بدا المنزل الصغير أحياناً طافحاً إلى آخر حد، وهناك أيام كانت تمر حين يكون الفنانان بشطحات خيالهما ومزاجهما ونقاشاتهما الحامية، مما يجعل المكان دافئاً بالأحرى. ولكن حتى أعطي فورد حقه، فقد كان الأقل نزقاً بين الاثنين، فهو فرد من أمة أقل قابلية للاستثارة، كما أن صوته الممطمط كان في تباين حاد مع الألفاظ السريعة غير الإنكليزية لزميله المتعاون معه في الكتابة».

يبدو وكأن فورد وكونراد كانا يناقشان ما سيكتبانه، ثم يفترقان ليكتب كل واحد منهما على حدة. ولا يوجد أي تلميح بأن فورد كان ينحني فوق كونراد وهو يصحح له قواعد اللغة، أو أن كونراد كان يحث فورد على صقل نثره بلمعة رائعة.

بصراحة كانت كلتا روايتي "الورثة" و "سيرافينا" فاشلتين وليستا بالفاشلتين المثيرتين للاهتمام. تروي "الورثة" حكاية "إتشنغهام غرانجر"، وهو جنتلمان إنكليزي يتعرف على شابة ذات بعد رابع. وذوو البعد الرابع أشخاص يتميزون بقوى خارقة (ولكنهم دون عواطف)، وهم سيرثون الأرض في النهاية. تنجح الفتاة في تدبير خطة لاستغلال غرينلند وينتصر ذوو البعد الرابع. لقد تم قبل ذلك مزج الفانتازيا مع الهجاء، ولكن مواهب "جوناثان سويفت" كانت من طراز آخر، ولم يتحل كونراد ولا فورد بالرشاقة المطلوبة في اللمسة: فالأهداف موضوع الهجاء عرضية والكتابة غبية على نحو أنيق. فالراوي يهذر قائلاً:

«كانت الفتاة أحجية، والأحجية ما أن تُحزر حتى تصبح أمراً تافهاً. وهي ستكون أيضاً شيئاً سخيفاً حين أجد الحل. وقد خطر لي أنها تمنت عليّ أن أنظر إليها كرمز للمستقبل على الأرجح...»

النثر يولد نفسه بنفسه ما أن ينطلق محركه، بيد أنه ليس هناك سبب يدعو على الإطلاق إلى توقفه.

"رومانس" (كما سميت رواية "سيرافينا" في النهاية) تقليد غير ناضج ومخفف لروايات روبرت لويس ستيفنسون، أو هي تقليد لـــ "رايدر هاغارد" دون الخواص النفسانية اللاواعية. إنها تحكي عن البطل الأرستقراطي "جون كمب" ومغامراته. وهو يروي حكايته بأسلوب يمزج بين الإلحاح اللاهث والإطالة السكونية:

«*كل هذا في ذهني الآن، وقد ليّنه البعد ورقّة الأشياء المتذكرة... الفجر الرائع للحياة، مع غموض أيام الشباب ووعودها وهي تشرق عبر السحب الكثيفة الهادرة. في ذلك الوقت كنت مغلوباً على أمري: لا أستطيع التعبير عن الأمر على نحو آخر. شعرت وكأني رجل ألقي به ليغرق أو يسبح محاولاً أن يبقي رأسه خارج الماء*».

ليس ممكناً لحسن الحظ أن نعرف ما إذا كان كونراد أم فورد هو المسؤول عن هذا الحساء من التفاهة الاستثنائية. كان كونراد يأمل في أن تحقق الرواية نجاحاً شعبياً، وأن تمنحه بعض الدعم المالي، وهو الأمر الأهم. وهي لم تحقق أياً من الأمرين. لم تعجب الرواية النقاد، ومن حسن حظ كونراد أنهم وضعوا اللوم على فورد فيما يخص عيوب الرواية.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

٦ - المعلّم

(١٩٠٣ - ١٩١١)

بعد خيبة الأمل من "رومانس"، عاد كونراد إلى العمل بصعوبة على "الإنقاذ"، وهي رواية عن الملايو كانت ما تزال عائمة في ركود. كتب بشكل عرضي تقريباً إلى غولزويرذي في ذلك الحين ليقول له : "أنا مليء بالحكاية ولكني لا أستطيع كتابة كلمة واحدة باستثناء العنوان وسيكون على ما أظن "نوسترومو".

كانت "نوسترومو" ستضع كونراد على حافة الانهيار العقلي ، كما كانت ستبرهن على أنها دون شك واحدة من أفضل إنجازاته، فهي رواية متخيلة على مدى واسع ومكتوبة بكثافة متسقة. مع حلول آب (أغسطس) من عام (١٩٠٣)، كان قد كتب اثنين وأربعين ألف كلمة ليقول لبينكر (ناشره /صديقه /بديل تاديؤش): "إنها رواية كونرادية أصيلة جداً، وفي الوقت نفسه هي رواية نقية وبسيطة أكثر من أي عمل آخر كتبته منذ [حماقة أولماير]..." ثم يتابع ليندب قائلاً" لا أجرؤ على سحب شيك واحد". كان الجمع بين التركيز الهائل على التأليف والقلق المالي يرخي بثقله على كونراد دون شفقة أو رحمة.

يبدو أن كتاب السيرة والنقاد يتجنبون السؤال الصعب الذي يقول: "لماذا عالج هذه الرواية البانورامية الضخمة في هذه المرحلة من عمله الروائي؟ في رأيي الشخصي أن كونراد بعد أن أجهد نفسه في كتابة "لورد جيم" و "قلب

الظلام"، وكلتاهما بمعنى ما محاولتان لكتابة ما يشبه سيرته الذاتية وذلك ليتوصل إلى تفاهم مع عناصر من شخصيته وماضيه، أحس كونراد بالحرية ليكتب "رواية نقية وبسيطة". بعبارة أخرى، إن كونراد وللمرة الأولى تقريباً لا يلتقط مادة من ماضيه وهو شاب، ولكنه يتأمل في العالم "من الخارج". ونتيجة لذلك فإن "نوسترومو" تكاد تكون خيالية على نحو هذياني ولا تبدي سوى إشارات قليلة عن التعب الذي كان يسود رسائل كونراد في ذلك الحين، وهي من بين رواياته كلها الأكثر تجذراً من حيث القراءة والبحث. كان على كونراد أن يدعم "اللمحة" التي عرفها عن أمريكا الجنوبية بقراءته لتاريخ باراغواي وفنزويلا.

"نوسترومو" حكاية عن ثورة أمريكية جنوبية، عن الاستعمار الرأسمالي الأمريكي وعن انهيار الأحلام السياسية. وهي مليئة بمجموعة مدهشة من الشخصيات التي تُعالج، بشكل عام تقريباً، بسخرية قاسية؛ كما تصور غيرية هذه الشخصيات على أنها مصلحة شخصية. يصبح "تشارلز غولد" المنهمك في البداية في العمل على منجم الفضة الخاص بأبيه في مقاطعة "سولاكو" الخيالية التي ابتدعها كونراد، وذلك للحفاظ على ذكرى أبيه، يصبح عبداً لـــ "المصالح المادية":

«لقد أوجع تشارلز غولد شعوره بأنه لن يتمكن مجدداً، مهما بذل من جهد الإرادة، من أن يفكر بأبيه بالطريقة نفسها التي اعتاد التفكير بها حين كان الرجل المسكين ما يزال حياً. لم تعد صورته الحية تحت سيطرته الآن. هذا الاعتبار، الذي يؤثر عن كثب على شخصيته، كان يملأ صدره برغبة حزينة وغاضبة للقيام بفعل ما. في هذا الشأن كانت غريزته لا تخطئ. الفعل مواس. إنه عدو الفكر وصديق الأوهام المتملقة. في سلوك فعلنا فحسب نستطيع أن نجد حس السيطرة على الأقدار».

لم يعد للفعل تلك الإمكانية المخلّصة التي احتوتها "قلب الظلام".

تجري أحداث "توسترومو" في الدولة الخيالية التي اخترعها كونراد وسماها "كوستاغوانا" (المعنى الحرفي لها هو "شاطئ الغائط" ولو أردنا أن نكون أكثر تلطفاً لقلنا "شاطئ الروث".) يحوم المليونير الأمريكي الملغز "السيد هولروبد" فوق الثوار، ويستغل عدم الاستقرار السياسي المتأصل من أجل غاياته الخاصة، بينما يموّه على أفعاله بستار من الاهتمامات الإنسانية والمسيحية. إن بصيرة كونراد من حيث إحساسه بأخطار الرأسمالية الأمريكية العدوانية وعلاقتها بالاستعمار "غير المباشر" لأمر ملفت للنظر. يقول المليونير الأمريكي و"المتبرع للكنائس": "على الزمان نفسه أن يخدم أعظم بلد في عالم الرب كله":

«سنعطي اسماً لكل شيء: الصناعة والتجارة والقانون والصحافة والفن والسياسة والدين، من رأس القرن" إلى "سميث ساوندز" وما وراءه أيضاً، لو كان هناك أي شيء يستحق الامتلاك قد برز في القطب الشمالي... سوف ندير تجارة العالم سواء أحب ذلك أم لم يحبه. لا يمكن للعالم أن يفعل أي شيء حيال ذلك، ولا نحن أيضاً، كما أظن».

تعتبر "توسترومو" تقليدياً رواية "صعبة" بسبب روح الشك عديمة الشفقة فيها وسردها ذي الطبقات المتعددة. تعود الحكاية إلى الخلف ثم إلى الأمام في الزمان لتكشف زيف "التقدم". ينظر إلى السياسة كطمع متنكر. ونرى "مارتين ديكاود" وقد علق في قلب هذه الاضطراب العظيم ، وهو صحفي متمرد ينضم إلى قضية سياسية ليثير إعجاب المرأة التي يحب، وإلى "توسترومو" قائد عمال المرفأ. (نوسترومو ترخيم لعبارة "رجلنا"، وهو الاسم الذي منحه إياه أرباب عمله).

يجد هذان الاثنان نفسيهما يؤديان مهمة تهريب الفضة خارج "خليج سولاكو" في العتمة. يصاب زورقهما بالعطب ويضطران إلى إخفاء الكنز

على جزيرة قريبة. يترك نوسترومو ديكاود لحراسة الفضة، ولكن عزلة الجزيرة تؤثر على إحساسه بذاته، فبعد أن لم يعد يتحمل الوحدة يطلق النار على نفسه:"مات من العزلة، العدو الذي لا تعرفه سوى قلة على هذه الأرض ولا يمكن أن يتحمله سوى الأكثر بساطة فينا."أما ما يخص نوسترومو، فهو يبدأ بسرقة مقادير صغيرة من الكنز المخبأ وعلى نحو سري، حين يدرك أن حسه بالواجب قد تم استغلاله من قبل ممن هم حوله. يصبح غنياً بهدوء ولكنه يكره نفسه:"شجاعته وعظمته وراحته وعمله، كلها بقيت كما كانت من قبل، ولكن كل شيء أصبح مزيفاً."

تتأمل السيدة غولد زوجة مالك منجم "سان توميه" (وواحدة من أكثر شخصيات كونراد النسائية إقناعاً) بأسى في نهاية الرواية في سلطة "المصالح المادية" وكيف تقرض تدريجياً المثالية السياسية والأخلاقية:

«*شاهدت جبل سان تومه معلقاً فوق الكامبو، فوق الأرض كلها، باعثاً على الخوف ومثيراً للكره وغنياً: أكثر خلواً من الروح من أي طاغية، وأكثر قسوة واستبداداً من أسوأ حكومة؛ جاهزاً لتحطيم حيوات لا حصر لها في محاولته نشر عظمته*».

من المستحيل أن نفي رواية "نوسترومو" حقها من حيث مداها وفكرها. لا يصل سوى عدد قليل من روايات القرن العشرين إلى مستواها.

على المستوى الشخصي، جعلت "نوسترومو" كونراد يدفع الثمن باهظاً. فرغم الملاحظة المازحة الواردة في "حاشية المؤلف" عن أنه لدى إنهائه تأليف الكتاب وجد "الأسرة كلها في خير وزوجتي سعيدة من كل قلبها إذ عرفت أن الصخب قد انتهى إلى غير رجعة وأن ابننا الصغير كان ينمو جيداً خلال غيابي". إلا أن الحقيقة كانت أشد درامية من ذلك: فطوال عملية تأليف الرواية كان كونراد في حالة جسدية سيئة ولم يكن على ما يرام نفسانياً.

وحين قابل الكاتب والشاعر "السير هنري نيوبولت" في "نادي اشبيلية"، سأله نيوبولت عن سبب مغادرته للندن. أجابه كونراد بأن الشوارع كانت ترعبه:

«"*مرعوباً... من ذلك التيار من الوجوه الممحية." انحنى نحو الأمام وكلتا يديه قد رفعتا إلى الأعلى بقبضتين مشدودتين. "أجل، مرعوباً: أرى شخصياتهم تنقض عليّ وكأنها نمور!*"»

ليس هناك من سبب خاص يدعونا إلى أن نصدق أن كونراد كان يمارس الكيد أو المزاح.

وكما يمكن التنبؤ به على نحو كاف، لم تحقق "توسترومو" نجاحاً شعبياً، وكان النقاد حذرين. تذمر "الملحق الأدبي لصحيفة التايمز" من أن "الدراما تغلبت عليها الآلة "، ثم تابع ليعلن بحدة بأن "نشرها كما هي يعتبر خطأ فنياً". وحتى لو حاول الصحفيون أن يكونوا لبقين ويمارسوا التبجيل، إلا أن لمساتهم المتحببة كانت تلسع كونراد الذي أحس أنه كتب واحدة من الروائع. مدحت "بريتيش ويكلي" الرواية على أنها "قصة مغامرات" ممتازة . اعتقدت جيسي أن الطريقة التي استُقبلت بها "توسترومو" كانت على الأرجح أكبر خيبة أمل –خيبة أمل أدبية - أصيب بها كونراد على الإطلاق.

خلال عمله على الرواية، استأجر كونراد شقة في كنسينغتون. من الناحية المالية، كانت هذه حركة محيرة، لأن المصرف الذي كان يتعامل كونراد معه، واسمه "واتسون أند كومباني"، كان قد أفلس وتركه نصف مفلس مجدداً. "مائتان وخمسون جنيهاً في ضربة واحدة."

وكأن هذا لم يكن كافياً، فقد حدثت أيضاً حالة طوارئ صحية. في كانون الثاني (يناير)، وخلال رحلة تسوّق إلى باركرز (ما يسمى الآن بالسوبر ماركت)، زلقت قدم جيسي على الرصيف فآذت ركبتيها. وبما أنها كانت بدينة فقد تكفل وزنها الزائد في جعل الإصابة شديدة. وقد كانت العواقب وخيمة حين وجدت نفسها عاجزة عن الحركة وفي حاجة إلى علاج طبي مكلف.

خلال كتابة "نوسترومو" والسيرة الذاتية الخفيفة "مرآة البحر"، راح كونراد وجيسي ينتقلان بصعوبة بين "كنت" ولندن اعتماداً على حالتها الصحية. في تشرين الثاني (نوفمبر)، وضعت جيسي في مستشفى خاص وخضعت لعملية جراحية معقدة. في البداية، بدت هذه العملية ناجحة، ولكن تبيّن مع مرور الوقت أنها جعلت الإصابة الأصلية في حالة أسوأ. ورغم هذا النبأ السيئ، كانت معنويات كونراد مرتفعة نسبياً حين تابع كتاباته عن البحر. وبالفعل كانت جيسي تشكو من أن كونراد دعا في المساء الذي سبق دخولها المستشفى الخاص ثلاثين شخصاً إلى العشاء.

من الصعب تجنب الاستنتاج بأن كونراد كان يدخل الآن في مرحلة من مرحل الهوس من نوع ما. كانت حركته التالية خطة لعطلة من أربعة أشهر على جزيرة كابري على أمل أن هذا سيساعد جيسي على استعادة عافيتها وأن يلطف من النوبات الملحة من النقرس التي كانت تنتابه.

كانت عطل آل كونراد كارثية في العادة. في "دوفر"، صدم أحد الرجال الذين كانوا يحملون جيسي إلى العبارة يده على سكة جسر السفينة، وكاد يسقط جيسي في مياه القناة البريطانية. في روما، تركت جيسي مدلاّة من عربة قطار لأن كرسيها تم تحريكه بحماسة شديدة مبالغ فيها. وحين نجحوا أخيراً في الهبوط بجيسي إلى بر جزيرة كابري، وهذه ملحمة بحد ذاتها، أصيب كونراد بالأنفلونزا وفاقمها بالتهاب القصبات، ولم يكن أي من الداعين يساعده على التغلب على أرقه. ومع ذلك فقد تغلب على كل هذه الأمور ليستطيع مواجهة ألم أسنان حاد نتج عنه تورم أحد خديه كبالون. وللضرورة، لعدم وجود طبيب أسنان في كابري، اضطر إلى زيارة نابولي حيث قلعت له سنّان مع ألم كبير.

في بداية شهر أيار (مايو)، كان كونراد يجد جدّة الطقس والمناظر الطبيعية أمراً مرهقاً نوعاً ما. كما لم يكن هو بشكل خاص مسروراً بالحركات

المريبة المرحة الجارية رغم مصادقته لـــ "نورمان دوغلاس" الذي سيصبح روائياً فيما بعد، والذي كانت حفلاته شنيعة الشهرة. كتب إلى فورد يقول:

«*إن فضائح كابري... الفضائح الفاحشة والتي لا يمكن وصفها والمسلية، الفضائح الدولية والعالمية والتوراتية... كل هذا نوع من الكابوس الأزرق تعبره الروائح الخبيثة والعطور... والكروم... وكاميرات الكودك والخِمارات العائمة والشوارب الخدية التي تلوّح بشكل غريب والقبعات العجيبة*».

وكذلك السواح الألمان الذين كان يحتقرهم بشكل خاص. "إنه لكابوس مع وجود الخوف من المستقبل أيضاً."

ورغم أن كونراد حاول أن يكتب وهو في كابري، فقد كان الأمر مستحيلاً تقريباً. وكما يقول لـــ "إدموند غوس": "أنا، في حالتي من التبني المشرف، أجد أني أحتاج إلى الدعم المعنوي والتأثير المقوّي للجو الإنكليزي، حتى من يوم إلى آخر."

ولقد استطاع أن يكتب مقالة "الاستبداد والحرب" وهي رد فعل على الحرب الروسية- اليابانية. وبعد أن مدح رقة اليابانيين، فقد هاجم الروس بحماسة كبيرة. وقد صور الدولة الروسية على نحو صارخ نوعاً ما على أنها استبداد تعسفي فج، وأنها بدائية في جوهرها وغير أوروبية. "شيء ما ليس من هذا العالم، يشارك كغول نهم." ورغم أن المقالة مخططة جيداً إلا أنه من الواضح أن ذهن كونراد كان يلتفت نحو القضية التي كانت تسود روايتي "العميل السري" و "تحت أنظار غربية".

عاد كونراد إلى الوطن ليكتشف أنه قد منح مبلغاً من المال يليق بالأمراء قدره خمسمائة جنيه من "صندوق الهبات الملكية". كان "إدموند غوس" الذي اعتاد على أن ينشط في دوائر الطبقات العليا في المجتمع وذات النفوذ، قد لمح إلى هذا الأمر حين كان في صحبة رئيس الوزراء "بلفور". ويُفترض أن الملك نفسه وافق على المنحة.

كان من المحتوم أن يتبين أن هذه النعمة كانت أكثر تعقيداً مما هو متوقع. من الواضح أن كونراد توقع شيكاً يسلم إليه دون تأخير. ولسوء الحظ، فإن سمعته كانت قد سبقته وتقرر أن يوكل إلى قيّمين اثنين إدارة شؤون هذه المنحة فراحا يقدمانها له بالتنقيط. غضب كونراد، فقد كان مديناً على أي حال وعليه تسديد ديونه. وقد هوجم "هنري نيوبولت: أحد القيّمين، برسائل دراماتيكية كانت مماحكة ومبررة للذات. وقد كشفت المقايضة عن الفجوة بين "مؤسسة" كانت تعتقد أن على كونراد أن يسلك سلوك اللياقة البورجوازية، ولكن كونراد الذي ما يزال يرى نفسه كأرستقراطي بولندي مهجّر، كان في حاجة إلى أن يواجه صعوبات مالية وأن يتمتع في الوقت نفسه بمستوى مرفه من الحياة. في أعماقه كان ما يزال "شلاختا". وقد تركته هذه الحادثة أسوأ حالاً، رغم أنه ما أن تخلص في النهاية من بعض ديونه، فقد استعاد معنوياته بما يكفي ليتابع العمل في عدد متنوع من المشاريع: وعلى أي حال، يمكن القول إنه بين عامي (١٩٠٥) و (١٩٠٦)، كان هناك افتقار لديه إلى التركيز.

وكما يجري عادة، كانت هناك حالات طوارئ منزلية وصحية: أصيب بوريس بالحمى القرمزية، وعانت جيسي من "انهيار عصبي من نوع ما". أما كونراد نفسه فكان يعاني من النقرس. هناك دليل على العاطفة المتبادلة بين كونراد وزوجته، وربما على غرابة العلاقات الزوجية جميعها والتي لا يمكن أن نحزرها، وقد تجلى ذلك في اكتشاف جيسي أنها حامل. كان كونراد في الخمسين وجيسي في الرابعة والثلاثين. قال لأحد معارفه:"أشعر بالخجل الشديد وبحمرة في الخدين من حصول أمر كهذا في سني الجليلة." وحتى يرفع من معنويات جيسي، اصطحبها كونراد للإقامة في فندق "أوتيل ريش" في مونبلييه (وهذا الاسم لا يليق بهذا الفندق). في تلك البيئة المخملية راح كونراد يعمل على رواية "العميل السري" التي تتناول عالم الفوضويين وثوار (قدور الصفيح؟) الذين يتمرغون في وحل لندن "الملتهمة القاسية لنور العالم".

في الثاني من آب (أغسطس)، في منزل في منطقة كينغستون أعاره غولزويرذي لكونراد وأسرته، ولد الابن الثاني وأسمي "جون ألكسندر"، ولكن علاقته بأبيه كانت دائماً أقل شحناً بالخطر من علاقة بوريس به، والذي كانت نوبات مرضه قد جعلته مصدر قلق دائم. وبما أنه كان الابن الثاني، فلم يكن متوقعاً منه إلا ما هو أقل من الأول. ربما كانت سن كونراد المتقدمة قد أثرت سلباً في مقاربته الأبوية لابنه.

خلال صيف وخريف عام (١٩٠٦)، استمر كونراد في كتابة "العميل السري" التي أنهاها في تشرين الثاني (نوفمبر). في "ملاحظات المؤلف" التي أوردها في الكتاب يذكر كونراد كيف حصل الإلهام لتأليف هذه الرواية في مناسبتين منفصلتين: كان يتحدث إلى صديق (ربما فورد): "تذكرْنا القصة القديمة عن محاولة تفجير مرصد غرينيتش. ثم قال الصديق بأسلوبه العرضي والواسع المعرفة المميز: (أوه، ذلك الشاب كان نصف معتوه. وقد انتحرت شقيقته لاحقاً.)"

أما المصدر الآخر الذي يذكره فكانت ملحوظة وجدت في مذكرات مفوض مساعد في الشرطة:

«المؤلف... أعاد نسخ حوار جرى في بهو دار مجلس العموم مع وزير الداخلية بعد اعتداء فوضوي غير متوقع. العبارة ... التي صدمتني أكثر من غيرها تجلت في ذلك الرد السريع الغاضب للسيد و. هاركورت (وزير الداخلية في حينه): "*كل هذا مفهوم. كل فكرتك عن السرية هناك تبدو وكأنها تبقي وزير الداخلية جاهلاً بما يحصل*"».

يعلق كونراد قائلاً:«*وفجأة شعرت بالإلهام للكتابة*.»

حكاية "العميل السري" كئيبة بما فيه الكفاية. فهناك عميل سري كسول وغير كفؤ يتلقى أمراً من رؤسائه الروس بأن يرتكب اعتداء فوضوياً. فبعد

أن حضر قنبلة يقرر استخدام شقيق زوجته المتخلف عقلياً "الأبله" لينسف مرصد غرينيتش. يتعثر شقيق الزوجة فينسف نفسه متحولاً إلى أشلاء، ورغم ذلك يتم التعرف على هويته من القصاصة التي كتب اسمه عليها وخيطت على معطفه. تأتي الشرطة فتكتشف "ويني فرلوك" زوجة العميل السري أن زوجها قتل أخاها الحبيب، فتقوم هي بدورها بقتله بسكين المطبخ ثم تنتحر لاحقاً بأن تلقي بنفسها أمام عجلات القطار. من هذه المادة الميلودرامية صاغ كونراد رواية عميقة وكوميدية في آن معاً.

قبل زواجه من "ويني" كان السيد فرلوك يقيم في غرفة مفروشة مؤجرة تخص أمها، وذلك بين الحين والآخر:

«*كان يأتي ويذهب دون أي سبب واضح. كان يصل عادة إلى لندن (مثل الأنفلونزا) من القارة، إلا أن الصحافة لم تكن تبشر بوصوله، وكانت زياراته تأتي ثقيلة. كان يتناول وجبة الفطور في الفراش ويبقى فيه متمرغاً وهو يستمتع بهدوء حتى الظهيرة كل يوم... وأحياناً حتى إلى ما بعد الظهر*».

توصف الشخصيات والأحداث كلها في الرواية بتهكم عدواني مثير للضحك باستمرار، وأحياناً في مواضع لا مجال فيها للضحك.هاهو كبير مفتشي الشرطة يفحص بقايا جثة "ستيفي":

«*نشرت صحيفة أخرى مضادة للماء على المنضدة كأنها غطاء لها، بينما كانت الزوايا قد رفعت فتشكل نوع من الكومة... كومة من مزق الملابس المسفوعة بالنار والمدماة، وهي تكشف تقريباً عما يمكن أن يكون مجموعة من المواد النيئة لوليمة آكلي لحوم البشر. كان عدم التراجع أمام مثل هذا المشهد يتطلب ثباتاً كبيراً في التفكير. وقف كبير المفتشين "هانت"، وهو ضابط كفؤ في القسم، متماسكاً، ولكنه لم يتقدم مدة دقيقة كاملة. ألقى شرطي محلي يرتدي البزة الرسمية نظرة جانبية ثم قال ببساطة متبلدة: "هاهو هناك. كل قطعة منه. لقد تطلب ذلك عملاً شاقاً."*»

يمزج كونراد المأساة العائلية لرجل يرفض ببلادة أن يفهم زوجته بتحليل للعلاقة بين الإرهابيين الفوضويين والمجتمع كما يتمثل في الشرطة والحكومة. يمشي أحد أكثر الفوضويين تشدداً "البروفسور" عبر شوارع لندن وهو يحمل قنبلة في جيبه، مستعداً لتفجير نفسه لو القبض عليه. خارج القانون، يثير هذا "البروفسور" حنق الشرطة لأنه يرفض أن يلعب حسب قواعد اللعبة. لقد أدرك كونراد أن أولئك المجرمين العاديين وأولئك الذين يطبقون القانون متورطون على نحو أساسي في اللعبة نفسها. و"البروفسور" يخيف لأنه مزق "كتاب القواعد". وهو يُرى في آخر فقرة من الرواية:"تافهاً ورّث المظهر وبائساً ... رهيباً في بساطة فكرته وداعياً الجنون واليأس إلى إعادة خلق العالم. لم ينظر أحد إليه. مرّ مميتاً دون أن يشك فيه أحد مثل وباء في شارع مليء بالناس." إن قوة هذه الذروة قد تحققت لأن كونراد، ولمرة واحدة، قد عدّل اللهجة التهكمية وهاهو العبث الخبيث يتحول إلى شيء أشد قتامة.

ولأننا نعيش في عالم من فظائع الإرهاب اليومية والتفجيرات الانتحارية العرضية، والاعتقاد بأننا مكرسون بسعادة لأعمال القسوة والعنف، فإن "العميل السري" هي أكثر روايات كونراد شعبية في مطلع القرن الحادي والعشرين. فبعد أسابيع قليلة من الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١)، راح الصحافيون يقتبسون من كونراد بغبطة. ومرة أخرى يبدو وكأنه سبق زمانه بقرن أو نحوه.

وكما يحدث دائماً فقد كشف النقاد المعاصرون لكونراد عن مزيجهم المعتاد من الاحترام والبلادة. فمثلاً اشتكت صحيفة "ذا مانتشستر غارديان" من أن "ثوريه ومعارضيهم لا ينازلون بعضهم بعضاً، بينما وجدت "كانتري لايف" الطريقة المعقدة للسرد صعبة الاحتمال. وكما لاحظ الذين كتبوا مراجعات نقدية عن الرواية في "أثيناكوم" بنفاذ بصيرة أصيلة: "إن حدة

حواسه الفنية قد سببت في المزيد من ابتعاده عن الجمهور العام من القراء بالمقارنة مع كثير من الكتاب الأقل أهمية منه، وقربته على نحو غير محدود من "القلة المنتخبة التي تتحلى بالقدرة على التقييم الأدبي."

وجد كونراد نفسه في ذلك الوضع الفظيع المتمثل في أنه مصنف كـ "كاتب عظيم" لا يريد أحد قراءته. فلا عجب أنه تذمر من أنه يشعر بأنه "متوعك ومكتئب إلى حد رهيب."

في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) توجهت الأسرة مجدداً إلى مونبلييه. مارس كونراد الراحة. في الشهر التالي أصيب بوريس بمرض تم تشخيصه على أنه "غدة ملتهبة". وبعد أسابيع قليلة من ذلك، أصيب بالحصبة، ومن بعدها بالتهاب القصبات مع الشك بوجود السل.

وبما أن والديّ كونراد ماتا كلاهما من جراء السل، فلا بدّ أن تلك الفترة كانت مترعة بالقلق على نحو خاص. ولحسن الحظ، تبين أن التشخيص غير صحيح، وانتقل كونراد بالأسرة إلى جنيف سعياً وراء العلاج المائي لنقرسه. كان "بينكر" ، وكيله، هو الذي سيدفع التكاليف حتى ينهي كونراد كتابة روايته التالية "حظ". (راح بينكر يكفل كونراد باستمرار. ولسوء الحظ، وقبل مغادرتهم مباشرة إلى سويسرا، أصيب كل من من بوريس وجون بالسعال الديكي. لاحظ كونراد أن جون "قد هزل إلى نصف حجمه. منذ صباح يوم أمس كانت تنتابه نوبة سعال كل ربع ساعة، وبالتالي لم يكن يستطيع أكل أي شيء... يا عزيزي بينكر، أشعر أن هذا كله أكثر مما أستطيع احتماله تقريباً." رغم يأس كونراد إلا أن جيسي تصدت للتحدي. كتب عنها يقول: "كانت جيسي بكل بساطة بطولية في مغامرة مونبلييه، فلم تبدر عنها أي علامة تدل على القلق، ليس فحسب أمام الصبي، بل حتى بعيداً عن نظره." في أي مزاج كان بقي كونراد مثمناً لجهود جيسي ومتعاطفاً معها بإخلاص. استعاد جون عافيته بسرعة وبقي بوريس عليلاً خمسة أشهر.

كانوا قد عادوا إلى "بنت" في صيف عام (١٩٠٧). كتب كونراد أنه كان قد ملّ من "الرحلات إلى خارج البلاد"، وقد كان صادقاً في ذلك حيث بقي في إنكلترا طوال السنين السبع اللاحقة. إلا أنه قد قرر مغادرة "بنت". في أيلول (سبتمبر) انتقلوا إلى "سومريز" في مقاطعة بدفورد. كان ذلك أول انتقال من ثلاثة انتقالات جرت بين عامي (١٩٠٧) و (١٩١٠). بطريقة ما أو بأخرى، بدا أنه مقدّر على قلق كونراد أن يعبر عن نفسه إن لم يكن ذهنياً فجسدياً.

وكذلك كانت كآبته. راح يشكو "سومريز" إلى "إيلي هويفر" زوجة فورد قائلاً: "ليست لديك أي فكرة عن الكآبة التي تقرض الروح، كآبة الأرض والسماء هنا حين تهب الريح الشرقية." أحياناً، يكرر دون وعي كلمات أبيه المنفي في "قولغادا". من المغري أن نقترح أن كونراد بقي إلى الأبد "هائماً" في المنفى: ولكن من الغرابة أنه كان هائماً وبرفقته أمتعة أسرة إدواردية كاملة.

بعد مله من :سومريز"، زار كونراد فورد الذي كان قد أطلق مجلة أدبية جديدة. كان لمجلة "إنغليش ريفيو" مساهمون من النجوم. فعدا عن كونراد، كان هناك "هـــ. ج. ويلز" و"هنري دجيمز" و"جون غولزويرذي". ومن الجيل الأسبق "توماس هاردي". لا حاجة إطلاقاً إلى أن نبخس من قدرة فورد على إقامة شبكة علاقات مع الكثيرين.

كان من المحتوم أن تنهار علاقة كونراد بفورد. كان كونراد يكتب ذكرياته للمجلة منذ سبعة أشهر. وقد منعه النقرس من تقديم الحلقة المخصصة لعدد شهر تموز (يوليو). وقد كانت ردة فعل فورد مبالغاً فيها وميلودرامية: "يؤسفنا أنه بسبب المرض الخطير الذي يعاني منه السيد جوزيف كونراد، فقد اضطررنا إلى تأجيل نشر الحلقة التالية من ذكرياته."

ورغم أن التفاصيل غامضة، إلا أنه من الواضح أن كونراد شعر بالغضب ورفض أن يقدم حلقات جديدة. تواقح فورد واتهم كونراد بخيانة

عهده. وقد أثار هذا رداً قوياً من كونراد، انحرف على غير عادته وبشكل خطير نحو ما يقرب من التباهي:"أنت تعتقد أني أسأت إليك وإلى المجلة على نحو مشين، فلماذا يجب أن يكون الأمر هكذا إذاً؟ أما ما يخص رئيس تحرير "إنغليش ريفيو"، فسوف نترك الأمر عند هذا الحد..."

لم تعد العلاقة مع فورد إلى سابق عهدها أبداً. رأه كونراد كـــ " شخص مصاب بهوس العظمة يتخيل أنه يدير الكون."

في هذه الأثناء كان كونراد قد وضع رواية "حظ" جانباً وراح يعمل بدأب على روايته التي تحكي عن ثوار روس، والتي كان عنوانها "رازوموف"، ثم سرعان ما دعاها "تحت أنظار غربية".

وهكذا تابع العمل، كما جرى دائماً، رغم خيبة أمله من عموم القراء، وهي خيبة أمل كان يمكن أن تتحول بسرعة إلى عداوة. في عام (١٩٠٨) يقول بحدة :"لقد تلقيت للتو حسابات جميع ناشريّ، ومنها أرى أن جميع أعمالي الخالدة (وعددها ثلاثة عشر) قد حققت لي في العام الماضي ما يقل عن خمسة جنيهات كحقوق تأليف." كما لم يكن شديد العزلة بحيث يتجنب الدخول في علاقات متينة مع كتاب مثل "هول كاين" و "ماري كوريلي" اللذين كانا قد حققا شعبية كبيرة لدى الجمهور، وكانت الصحافة تكيل لهما المديح جزافاً. "لا توجد في أعمالهما أي جودة نوعية ذات ديمومة. الفكر تافه والأسلوب دون أي امتياز. كانا قد حققا الشعبية لأنهما عبّرا عن الفكر الشائع، والإنسان العادي يسرّ حين يجد نفسه على اتفاق مع الأشخاص الذين يفترض أنهم متميزون."

تابع كونراد الاستدانة من بينكر وغولزويرذي أو أي شخص كان مستعداً لمدّ يد العون فعلاً. كان هو في حاجة إلى النقود من أجل أن يسدد رسوم مدرسة بوريس وإيجار المنزل وأقساط الأثاث، إلخ... تفاقمت الديون

وكان مستعداً حتى ليعترف بما يلي:"ربما لم أعد أحسب جيداً بما فيه الكفاية. حين لا يرى المرء ما ينفقه، فهو يميل إلى إنفاق أكثر من اللازم." وأخيراً بمساعدة بينكر مع منحة مقدارها مائتا جنيه من "الصندوق الأدبي الملكي" حصل عليها بمساعدة من غولزويرذي وهـ. ج. ويلز، استطاع كونراد تدبير أموره المالية.

بدأ عام (١٩٠٨) بداية سيئة مع نوبات جديدة من النقرس وتدهور حالة جيسي الصحية. بقي كونراد يصارع رواية "رازوموف" التي لخصها لغولزويرذي كما يلي:

«*الطالب رازوموف (الابن غير الشرعي للأمير ك.) يسلم سراً زميله في الدراسة إلى الشرطة واسمه "هالدين" الذي كان قد لجأ إلى غرفته بعد أن ارتكب جريمة سياسية (من المفترض أن تكون اغتيال "دي بليهفه"). تجري أحداث الجزء الأول في سانت بطرسبرغ (هالدين يعدم شنقاً بالطبع).*

في الجزء الثاني في جنيف. الطالب رازوموف في الخارج يقابل أم هالدين وشقيقته ويقع في غرام الشقيقة ويتزوجها، ثم يعترف لها بعد فترة من الزمن بالدور الذي لعبه في اعتقال ومصرع شقيقها.

تشكل التطورات االنفسية التي تؤدي إلى خيانة رازوموف لهالدين والاعتراف بالحقيقة لزوجته وإلى وفاة هؤلاء الأشخاص... الموضوع الحقيقي للقصة».

كان كونراد سيعدل الجزء الثاني المثير على نحو خفيف للعواطف وكما هو مذكور هنا، فيقوم بإضفاء بعض القوة على مصير هالدين في النهاية. وقد نمت الرواية خلال عامين من اثنتين وستين ألف كلمة حسب الخطة الأصلية إلى مائة وثلاث عشرة ألف كلمة . انتهى كونراد من كتابتها أخيراً في كانون الأول (ديسمبر) من عام (١٩٠٩).

تعتبر "تحت أنظار غربية" من قبل البعض على أنها من الروائع التي لا جدال فيها. وهي رواية غير عادية من نواح كثيرة. فهي تشبه "لورد جيم" من حيث أنها تبحث في الجريمة ومعاقبة الذات من قبل البطل الرئيسي عبر عيني مراقب شكاك، هو في هذه الحالة معلّم اللغات. ولكن بينما تحمل "لورد جيم" تأثير موباسان وفلوبير كليهما، فإن الحضور المهيمن على "تحت أنظار غربية" (بل والحاضن بالفعل) هو حضور دوستويفسكي.

من على السطح يبدو هذا محيراً، لأن كونراد لم يكن يطيق دوستويفسكي وذلك لأنه كان روسيّاً بقوة:" وإضافة إلى ذلك لا أعرف ما يمثله دوستويفسكي أو يكشفه، ولكني أعرف أنه روسي جداً بالنسبة إليّ." يبدو الأمر لي وكأنه تشدقات شرسة من عصور ما قبل التاريخ."

رغم وجود شيء من المبالغة في التبسيط، إلا أن هناك شكاً في أن كونراد في هذه الرواية يعود إلى مادة تتعلق بسيرته الذاتية: فهاهو يتصدى مجدداً لموضوع الخيانة والروس الذين اضطهدوا كلاً من شعبه ووالديه . ولسوء الحظ، فحتى روائي من طبقة كونراد يدفع بقوة إلى أن ينبري لدوستويفسكي ويخرج سالماً.

خلال الرواية كلها، يثلب كونراد جميع مظاهر الحياة الروسية ، رغم استبقائه للتعاطف مع بطله، رازوموف. لا يمكن تطبيق الاحتقار الذي لا هوادة فيه الذي لاءم سكان "كوستاغوانا" الخياليين و المتوطنين الإرهابيين في لندن وذلك بالسهولة نفسها على أمة بكاملها. كشفت "قلب الظلام" إلى أي حد من السوء يمكننا أن نتصرف نحن أهل "الغرب". ولكن يبدو أن كونراد يمنح معلّم اللغات في "تحت أنظار غربية" دعماً كريهاً حين يشدد على مدى بدائية روسيا الآن وفي الماضي، وكيف أنها على تباين جلي مع "الغرب" بقيمه المتمدنة واهتمامه بالحرية:

«في افتخارها بكثرتها وادعاءاتها الغريبة بالقدسية واستعدادها السري للحط من قدر نفسها في الألم، فإن روح روسيا هي روح التهكمية (الكلبية). ففي تصريحات ساستها ونظريات ثورييها والتكهنات الصوفية للأنبياء، تصل هذه الروح إلى حدّ جعل الحرية تبدو كشكل من أشكال الفساد والغواية، وتبدو القيم المسيحية نفسها وكأنها بذيئة فعلاً».

ورغم أن لهذه المادة طاقة خطابية شكاءة، إلا أنها ليست "مبرهناً عليها" بالفعل بقصة خيانة رازوموف لهالدين. وتبقى هذه المادة تعميماً واهياً يسمح للقارئ بأن يختلف معها.

بالطبع هناك لحظات من القوة الهائلة. فرازوموف (الذي يعني اسمه بالروسية الذكاء أو العقل، والكلمة هنا بصيغة الجمع في حالة المضاف إليه) يجتهد بدأب على دروسه حتى ينال رضا أبيه "الأمير ك". وبما أنه ابن غير شرعي فهو لا يستطيع أن ينال رضا أبيه إلى حد كاف. ولهذا أهمية تتعلق بالسيرة الذاتية لكونراد بجلاء كاف. في رواية "نصر" (١٩١٥)، نرى كونراد يتعامل مجدداً مع موضوع الابن الذي يخيب أمل أبيه.

حين يجد رازوموف نفسه معزولاً بسبب خيانته لزميله يبدأ النثر باللدغ:

«تاق رازوموف بيأس إلى كلمة من كلمات النصح، إلى الدعم المعنوي. من يعرف كيف تكون الوحدة الحقيقية... ليس العبارة التقليدية، بل الرعب المجرد؟ بالنسبة إلى الذين يعانون من الوحدة فهي ترتدي قناعاً. أكثر المنبوذين بؤساً يعانق ذكرى أو وهماً ما. بين الحين والآخر يرفع الارتباط المميت للأحداث الستار لبرهة. ولكن لبرهة واحدة فحسب. ليس هناك كائن بشري يستطيع تحمل مشهد متواصل من العزلة المعنوية دون أن يصاب بالجنون».

وعلى نحو مخالف للتنديدات اللاذعة المعادية للسلافيين، فإن عزلة رازوموف يتم تهويلها في الرواية. من الصعب تجنب التفكير في أن كونراد نفسه كان يحس بالغربة في حياته رغم الراحة التقليدية المتمثلة بالأسرة والأصدقاء.

بين أصدقائه الجدد كانت "أغنس توبين"، وهي شاعرة وراعية ثرية للأدباء من كاليفورنيا عرّفته على مجموعة من الكتاب الفرنسيين الشبان، ومن بينهم "أندريه جيد" الذي كان قد أسس نوعاً من نادي المعجبين النخبة. وقد أهدى كونراد روايته "تحت أنظار غربية" إليها وإلى "عبقرية الصداقة". بقي أندريه على علاقة طيبة بكونراد لسنوات كثيرة، بل أنه اشترى لابنه جون لعبة "ميكانو". استمتع جون باللعب بها، ولكن أباه أصيب بالإحباط، لأن أصابعه التي كانت تعاني من النقرس لم تساعده على التعامل مع قطع الميكانو الزلقة.

بعد أن أنهى كتابة "تحت أنظار غربية"، تشاجر كونراد مجدداً مع وكيله ثم عانى نوعاً من الانهيار الجسدي والنفسي المسبب للكآبة. كتبت جيسي إلى ناشره تقول:

«الرواية أصبحت جاهزة، ولكن لا بدّ من دفع الغرامة. لقد انتهت أشهر من التوتر العصبي إلى انهيار عصبي كامل. كونراد المسكين مريض جداً ويقول الدكتور هاكني إن فترة طويلة ستمر قبل أن يكون كونراد قادراً على القيام بأي عمل يتطلب إجهاداً ذهنياً... [المخطوطة] موجودة على الطاولة عند أسفل السرير وهو يعيش ممتزجاً بالمشاهد ويحاور الشخصيات».

ليست هناك حاجة إلى دليل إضافي على انهماك كونراد المدمر في عمله الإبداعي. حين شفي كتب إلى "نورمان دوغلاس" يقول:"ما زلت في حالة من الارتجاج إلى الآن. أشعر كما لو أني عدت من جهنم وأنظر إلى حياة الأشخاص الأحياء برعب." في حزيران (يونيو) من عام (١٩١٠) نقل كونراد مسكنه مجدداً، وهذه المرة إلى "كابل هاوس"، وهي عبارة عن ضيعة معزولة قرب أشفورد في مقاطعة "كنت".

في السنة التالية أو نحو ذلك، تابع كونراد التعرف على المزيد من الناس. كان "ريتشارد كيرل" وهو كاتب صحفي من "الدايلي ميل" من

المعجبين بأعمال كونراد وفلسفته، وقد وصفه ابنه بالذات بأنه كان رجلاً كئيب المزاج تنتابه نوبات حزن ويخضع لشعور لاعقلاني بالذنب. وقد تفاهم كونراد معه جيداً. رد "كيرل" الجميل بأن راح يعزز من شهرة كونراد في سنوات انحدارها في نهاية العشرينات وفي الثلاثينات.

والأغرب من ذلك أنه جرى تقديم كونراد إلى أطراف "مجموعة بلومزبري". كانت "الليدي أوتولاين موريل" حريصة على اللقاء به مما روّع هنري دجيمز الذي كان ما يزال يعتبر كونراد فناناً على دراية بشؤون الحياة محبوساً في جسد ملاّح أجنبي خشن. كان "صالون موريل" مضرب المثل في تبني الأفكار الليبرالية والأخلاقيات المتحررة، فقد كانت موريل نفسها قد عاشرت جنسياً كلاً من "روجر فراي" و"أغسطس جون" و"برتراند راسل". ومن غير المدهش أنه كانت لها عين ثاقبة لما هو سطحي:

«*كان كونراد يبدو كنبيل بولندي. كان سلوكه شديد المثالية، شديد التعقيد تقريباً... ويتحدث الإنكليزية بلكنة قوية، وكأنه يتذوق كلماته في فمه قبل أن يتلفظ بها. ولكنه كان يتحدث بها جيداً جداً، رغم أنه كانت له دائماً لغة وأسلوب شخص أجنبي*».

لم يبد كونراد سوى القليل من الحماسة لموريل وطاقمها المرح من المثقفين من أشباهها، وسرعان ما أدرك أنه كان يعامل بلطف مع استعلاء ولكن بأسوأ ما في العبارة من معنى. إلا أنه استطاع التعرف على معجب حقيقي واحد على أي حال. كان برتراند راسل قد اندفع نحو موريل متحدثاً بعبارات لا تشعر عضواً مراهقاً في المجموعة بالخجل، مهما كانت درجة حبه لكونراد. أما السبب في أن أحد مؤلفيْن اثنين لكتاب "الرياضيات الرئيسية" كان معجباً إلى ذلك الحد فيبقى أمراً محيراً كأنه لغز: ربما أدرك أن كونراد كان يشاركه في شيء من إحباطه الشخصي. في "السيرة الذاتية" لاحظ راسل أنه كان يشعر في المواقف الاجتماعية كسمكة في حوض زجاجي : فهو

يضرب بأنفه باستمرار على الزجاج، واعياً على الدوام بالحاجز غير المرئي الذي يفصله عن الآخرين.

سر كونراد لأن امرأة تنتمي إلى الأرستقراطية البريطانية كانت تتودد إليه، كما شعر بالإطراء حين أطلق راسل على ابنه اسم " كونراد": "من الأمور التي لا تصدق أن يحدث وجود واحد من آل راسل يحمل اسمي، وهذا شيء رائع جداً." لبرهة، شعر كونراد أنه مقبول.

نشرت "تحت أنظار غربية" في الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) من عام (١٩١١) في بريطانيا، وبلغ عدد نسخ الطبعة الأولى ثلاثة آلاف. لم يكن هذا الرقم كبيراً، ولكن النقاد الذين كتبوا المراجعات عنها اقترحوا حصول نقلة في المنظور النقدي بعد انتظار طويل.

كمنت مشكلة كونراد مع النقاد في أنه أصبح من الصعب جداً تصنيفه. فقد عُرف في البداية ككاتب لحكايات غريبة عن أماكن قصية نائية، ليتحول إلى شاعر البحر بلغة النثر. وما أن بدأ النقاد في تصنيفه على هذا النحو، حتى وجدوه يقفز نحو "قلب الظلام" و"نوستروموا" و"العميل السري". وبعد أن شعروا بالضياع، نزعوا إلى العودة إلى الكليشيهات الجاهزة عن الكتابة الجميلة وبناء العقدة الملتفّة. أولاً وقبل كل شيء، لاقت "تحت أنظار غربية" المديح كتعليق ناضج على الرواية الروسية - كانت ترجمات "كونستانس غارنت" للروايات الروسية قد أخذت تظهر في ذلك الحين، وكانت الروايات الروسية بالتالي بالتالي مطابقة للموضة السائدة – وبسبب عمقها النفساني. وصفتها صحيفة "ذا مورنينغ بوست" على أنها "دراسة مقنعة للروح في قبضة القدر الذي لا يعرف الرحمة، بينما اعتبرتها "بل مل غازيت" على أنها "رائعة "بسبب نفاذ بصيرتها علم النفسية. رغم أن "ذا غازيت"، وربما في نوبة لطيفة من نوبات الكره المرضي للأجانب، لفتت الانتباه إلى الأخطاء النحوية للكاتب البولندي.

٧ - كونراد فيما بعد

(١٩١١ - ١٩٢١)

في هذه الأثناء كان كونراد يعمل على رواية "حظ" وهي روايته التالية. كان قد نشر للتو بعض الذكريات (تحت عنوان غير مباشر هو "سجل ذاتي")، وكان حريصاً على أن يبقى اسمه منتشراً بين عموم الناس. في البيت، رغم الأسقام الثانوية المعتادة ساد سلام نسبي. كان بوريس الذي بلغ الآن سن الثالثة عشرة في حاجة إلى المزيد من التعليم، وقرر كونراد أن يجعله يتدرب على سفينة اسمها "وورستر" تابعة للبحرية الملكية البريطانية، وهي سفينة تدريب بحري. وشأنه شأن كثير من الآباء الذين يتركون أولادهم في مدارس داخلية، كانت مشاعر كونراد مختلطة:

«*بدا لي "ب" شديد الضآلة والوحدة على ظهر تلك السفينة الهائلة الحجم ضمن ذلك الزحام الكبير من الناس الذين لا يعرف أحداً منهم. هذا تغيير عظيم بالنسبة إليه. أجل، لقد بدا كولد صغير. لم أستطع اتخاذ قرار بتركه ثم أندفع مبتعداً . لا أستطيع أن أجعله يغادر مجال بصري*»...

مهما تكن علل كونراد كأب، إلا أن عاطفته تجاه ابنيه كليهما لا يمكن أن تكون موضع شك.

في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) كان على وشك إنهاء "حظ"، وكتب إلى بينكر يقول:

«*أرى نهاية الرواية بشكل صحيح تماماً، ولكن كتابتها على الورق أمر شاق جداً . وبالطبع أعاني من نوبات رهيبة من ألم الأسنان. منذ رواية 'لورد*

جيم" *(ضمناً) فإن نهاية كل رواية طويلة تكلفني سناً. لا يهمني لو خسرت سنين اثنتين حتى أتمكن من إنهاء هذا العمل بسرعة*».

هذه تجربة في الكتابة أشبه بشكل من أشكال التعذيب الجسدي.

من بين الافتراضات الخاصة بالنقد المحترف لأعمال كونراد افتراض يقول إن عمله بدءاً من رواية "حظ" بدأ ينحدر بحدة. هناك بعض من امتدح رواية "نصر"، ونالت الرواية القصيرة "خط الظل" القليل من المديح، ولكن هناك اتفاق عام على أن قراره بالتركيز على قصص "الحب" في سنواته الأخيرة كان سوء تقدير كارثياً. وتفسير هذا الانتحار الفني المفترض هو أن كونراد بعد سنوات من التركيز الرهيب، أصبح منهكاً ومطفأ، ولم يعد كما كان.

هذه النظرية عن سوء التدبير الفني وسببه الجذري نظرية ساذجة وتبسيطية أيضاً. من جديد هاهو كونراد يُبخَس من قدره لأنه فشل في تكرار نفسه.

في أعماله المتأخرة، من القصة الممتازة "ابتسامة الحظ" فصاعداً، هاهو كونراد يكتب "حكايات رومانسية". إنه يستخدم عن وعي شكسبير كنموذج له: وهناك عناصر في كل من روايتي "حظ" و "نصر" تعكس على نحو واع "حكاية الشتاء" و"العاصفة" على وجه الخصوص. لا يحتاج الأمر إلى عبقري ليفهم أن الروايات المتأخرة تفتقر إلى التحليل الشخصي والسياسي الناقد للذات الذي تمتعت به روايتا "نوستروموا" و"العميل السري"؛ ولكن هناك لطف ساخر وإيمان مؤثر بإمكانية الخلاص الذي ليس هو بالمتكلف ولا بالسطحي.

تفتتح "ابتسامة الحظ" النموذج بحكاية عن شابة صغيرة ووالدها الاستغلالي، ويخططان كلاهما لأسر قبطان شاب يقوم بسرد القصة ويحيط أفعاله بهالة غير ممكن اختراقها من الغموض الأخلاقي. توجد هنا لمحات من شخصيات "بروسبيرو" و"ميراندا" و"فرديناند".

في رواية "حظ" وعبر بنية فوقية معقدة من الرواة، نواجَه مرة أخرى بأب آثم وفتاة شابة بريئة /جاهلة وخاطب ودّ متردد.

أحد هؤلاء الرواة هو "مارلو" الذي يعود ليلعب آخر أدواره. وكما في السابق، فإن دوره معقد. وخلال جزء كبير من الرواية يتقيأ الهراء الكاره للنساء نفسه الذي سبق وسمعناه في "قلب الظلام"، ولكن رغم كثرة إلحاحه على أن النساء "خاليات من الحشمة" فإن تصرفات "فلورا دي بارال" تثبت العكس. وتكشف تعميماته الرنانة بأسلوب مترع بالنشاط أنك إذا أردت أن تعيش حياتك فعليك في النهاية أن تكرس نفسك للآخرين. القنص على الخطوط الجانبية قد يعطي المرء وهماً بالتفوق، ولكنه وهم فحسب.

مشكلة البطلة أن أباها، وهو نصّاب بأبعاد مذهلة ومدان، يضعها خارج حدود المجتمع. وحين تقابل معجباً يحبها إلى درجة العبادة في إهاب "الكابتن أنتوني"، لا تستطيع أن تفهم هي فعلاً ما يشعر هو به. كما أنه بدوره خجول إلى حد أنه لا يستطيع أن يجد الكلمات ولا الإيماءات ليعبر لها عن نفسه. يجعل سوء الفهم المتبادل هذا القراءة مؤلمة. فالشخصيات هم ضحايا للقوى المتحكمة بالطبيعة والتربية، كما أن عنوان الرواية "حظ" تهكمي ليس إلاّ.

وقد حققت الرواية نجاحاً مدهشاً وحررت كونراد من العبودية المالية التي شلت حياته. وأسباب نجاح الكتاب بسيطة، ولكن أصدقاء كونراد ومعاصريه نزعوا إلى ادعاء الحيرة. اقترح "غارنت" بأسلوب مشاكس أن "شخصية السيدة المرسومة على "الغلاف" هي التي روجت للرواية أكثر مما فعل النقد المطوّل الذي كتبه "السير سيدني كولفين" في صحيفة "الأوبزرفر".

في الواقع فإن مالك صحيفة "نيويورك هيرالد" قرر أن ينشر الرواية مسلسلة، وهذا بدوره أقنع "ألفرد كنوبف" الذي كان يعمل لصالح دار نشر "دبلداي" أن يضع كامل وزن الدعاية الترويجية خلف كتاب كونراد، مما جعله "كتاب المطالعة المطابق للموضة الرائجة". وبغض النظر عن هذا، فإن لهذه الرواية في لبّها حكاية غرامية ميلودرامية ورقيقة على نحو ذكي، مما ضمن لها الشعبية.

كانت اللطخة الوحيدة في هذا الأفق المشمس على نحو خاص هي المراجعة النقدية التي كتبها هنري دجيمز. فحتى في هذه المرحلة من حياته الأدبية كان كونراد ما يزال يخشى دجيمز إلى حد كبير. وبالفعل كان دجيمز المؤلف الحي الوحيد الذي كان كونراد قادراً على الإعجاب به دون تحفظ.

وبأسلوب نمطي يقوم دجيمز بالرقص برشاقة من حول اعتراضاته على الرواية قبل أن يتلفظ بها بصراحة وبطريقة معقدة وخبيثة حتى ليكاد يصل إلى حدود التقليد بغرض إثارة الضحك. والمأخذ الرئيسي لديه هو أنه يكره استخدام الرواة المتعددين، ويعتقد أنه يصعّب فهم الحكاية دون أن يزيد من علم القارئ.، إذ أنه يشكل:

«أعداداً متتالية من صف من الأشخاص الواحد في إثر الآخر ويكون على المعنى والفائدة من الموضوع أن يمرا معاً، بأسلوب دلاء الماء التي تمرر عند إطفاء الحريق المرتجل، وذلك قبل الوصول إلى أفهامنا: كل ذلك مهما كانت النتيجة، وبكمية تسمح بسفح الماء على الطريق».

أسرّ كونراد لاحقاً أنه من بين كل المراجعات النقدية دون المتوسطة التي كتبت عنه على مرّ السنين – وهي كثيرة- كانت هذه هي المراجعة الوحيدة التي "آلمته كثيراً".

مهما كانت قوة سوء الاستقبال، إلا أن وضع كونراد المالي الجديد قد توضحت آثاره بشرائه لسيارة كاديلاك مستعملة. حسب ما يقوله بوريس الذي أحب السيارات طوال حياته، كانت أمه سائقة ماهرة، وكانت تتعامل مع الصعوبات بهدوء ويسر. وكان هذا في تباين واضح مع سلوك أبيه الذي كان ينزع إلى المبالغة في رد الفعل، فيدوس على الفرامل بقوة مهما كان السبب تافهاً.

اشتكى كونراد لأندريه جيد قائلاً: "أعرف جيداً أني استهلكت كل ما عندي من أفكار للكتابة". ولكنه تابع العمل على قصص قصيرة متنوعة، حتى

أرسل إلى بينكر مخططاً لرواية "نصر"، وهي آخر رواياته الهامة: "رجل غير تقليدي وفتاة على جزيرة في ظروف غريبة. تصل إلى الجزيرة عصابة من ثلاثة أوغاد من النوع غير التقليدي أيضاً. وهذا التداخل ينتج تطورات وآثاراً نفسية معينة. هناك فلسفة ودراما في الرواية أيضاً ، وكل هذا معالج بخفة؛ والرواية موجهة إلى المثقفين."

يمكن لهذا المخطط البسيط أن يكون ملخصاً لعقدة مسرحية "العاصفة" لشكسبير: والهدف الجمالي والأخلاقي النهائي "الموجه إلى المثقفين" سيبدو على نحو مشابه وكأنه يربط الرواية بآخر مسرحيات شكسبير.

في هذه الأثناء، كان كونراد نشيطاً. وبما أن رواية "حظ" كانت تنشر مسلسلة، فإن مجموعة من القصص القصيرة "بين البر والبحر" كانت قد لاقت مديحاً من الجميع: كما أن الطبعة الإنكليزية بنسخ بلغ عددها (٣٥٠٠) نسخة ضمنت تحقيق أكبر عدد من النسخ تنشر لكونراد من الطبعة الأولى لأي من كتبه حتى تاريخه.

رغم انعدام الثقة بالنفس وهو أمر مفضوح ونوبات تقلبات المزاج المفاجئة، تمتع كونراد بممارسة الاختلاط بالناس رغم أنه كان يفعل ذلك حسب مشيئته. تعرف على "أرنولد بنيت"، وهو كاتب من المعجبين بموباسان بقدر إعجاب كونراد به. وكان "بنيت" بين القلة التي ميزت أهمية رواية "نوسترومو" ، كما أنه قدم كونراد إلى "جوزيف رتينغر" ابن محام من مدينة كراكوف (البولندية) الذي درس في باريس ثم وصل إلى لندن في مهمة سياسية الغرض منها حشد الدعم لقضية استقلال بولندا. ربما كان يأمل أن ينال المساعدة من كونراد، ولكن هذا الشكاك القديم لم يكن من المحتمل أن يتحمس لأي قضية سياسية، مهما كانت ذات قيمة. كانت زوجة رتينغر شابة وجذابة.

في بدايات عام (١٩١٣) مكثت هي وزوجها في "كابل هاوس":

«كان كونراد مغرماً بالحديث عن الأدب، وكان مؤلفوه المفضلون هم كبار أدباء فرنسا الذين كان هو معجباً بهم. في تلك المناسبات كان يحب التحدث بالفرنسية. كانت له بالإنكليزية وعلى الدوام لكنة أجنبية واضحة. كان يتكلم البولونية بوضوح وبلكنة أوكرانية فاتنة. أحياناً كانت تعوزه كلمة ما، فتراه يلجأ إلى الفرنسية».

كان كونراد قد اتهم قبل ذلك العام بفترة قصيرة بأنه يسرق من الكتاب الآخرين سرقات أدبية صغيرة، فقد كان الباحثون قد فتشوا أعماله بحثاً عن عبارات أو فقرات مختلسة من الكتاب الفرنسيين الكبار منهم كما الصغار. كما سبق وألمحنا فإنه مدين بقوة لموباسان في رواية "زنجي النارسيسوس": ولكن عدا ذلك فإن الدليل يشير إلى أن كونراد كان يلتقط بعض العبارات ويضمنها في كتبه وهو ينتقل، دون وعي تقريباً، من لغة إلى أخرى. إن إشارة "أوتوليا رتينغر: تلقي حتماً نوراً مترعاً بالشك على تأكيده بأنه كان يفكر دائماً بالإنكليزية وذلك منذ اللحظة التي انضم فيها إلى البحرية التجارية. كان قادراً، وهو ضمن صحبة تجعله مسترخياً، لا يلعب دور صاحب عزبة ثري من مقاطعة "كنت"، على التكلم بأكثر من لغتين وبطلاقة.

ساعد الزوجان رتينغر كونراد على التفكير مرة أخرى بعلاقته بوطنه الأم. وقد كاد هذا أن تكون له عواقب مميتة في العام التالي.

خلال عام (١٩١٣) كله، كان كونراد يعمل على رواية "نصر"، وكالعادة أخطأ في تقدير طولها ومدى تعقيدها. وكان البطء يعتري جهوده ولكن فقط حين تحصل تلك النوبات من المرض في الأسرة. في أول تموز (يوليو) أعطى للرواية عنوانها، ولكن كونراد عاد وتذمر من الأجزاء الأولى من الكتاب. ولدى اكتمال كتابة الرواية استطاع أن يفاوض على عقود سمينة، فقد دُفع له مبلغ خيالي في ارتفاعه هو (١٨٥٠) جنيهاً مقابل نشر الرواية

مسلسلة وكسلفة لطباعتها في كتاب. للمرة الأولى منذ أن غادر بولندا، هاهو يكسب ذلك النوع من المال الذي كان يشعر أنه يستحقه. ومع إحساسه بالفخر الآن، وبتشجيع من الزوجين رتينغر، قرر أن الوقت قد حان ليأخذ أسرته في عطلة ويعود إلى وطنه الأم. حتى من منظور عطل آل كونراد الكارثية المعتادة، كانت هذه ستبرهن على أنها خاصة جداً. انطلقت أسرة كونراد المؤلفة من أربعة أشخاص مع الزوجين رتينغر في ٢٥ تموز (يوليو) من عام (١٩١٤)، أي قبل ثلاثة أيام من اندلاع شرارة الحرب بين النمسا وصربيا وأسبوع أو نحوه من اندلاع الحرب العالمية الأولى نفسها.

من على السطح يبدو أنه أمر غريب ألا يستطيع مراقب سياسي حاد شأن كونراد أن يلاحظ علامات الاضطرابات التي كانت تتراكم طوال ربيع عام (١٩١٤). ولكن كونراد لم يكن يهتم إطلاقاً أو يهتم قليلاً فحسب بالتفاصيل السياسية اليومية. كان يقارب السياسة كظاهرة سوسيو-أنثروبولوجية. وحتى على هذا النحو، فقد كانت تلك غلطة فاحشة وهائلة.

كان كونراد سيكتب عن هذه الزيارة لبولندا، ولكن كما حدث غالباً في محاولاته لكتابة سيرته الذاتية، فقد كان يعقّم الأحداث لتلائم نظرته إلى نفسه كمنفي عائد إلى وطنه.

بما أن الحرب كانت تئزّ من حولهم فقد كانت الحركة صعبة إنما ليست مستحيلة. استمتع كونراد بلقاء الناس. كان منغمساً في ذاته على نحو وضاء . كتب إلى بينكر في ٨ آب (أغسطس):

«صحتي جيدة. هناك حافز ذهني ينتابني من هذه المسألة. أستطيع أن أقول لك ذلك! ولولا القلق المحتوم لكنت سأحصل على فائدة كبيرة من التجربـــة».

في هذه المرحلة كانت بريطانيا وألمانيا تتحاربان منذ أربعة أيام.

ورغم أنه لم يكن مشهوراً في بولندا، إلا أن كونراد عومل بمودة كشخص ظريف. من الواضح بما فيه الكفاية أنه ساهم بنشاط في نقاش جرى حول مستقبل بولندا، ولكن وجد واحد أو اثنان من مضيفيه أن "هدوءه اللامبالي" كان مثيراً للحنق قليلاً. أرادوا منه أن يعلن عن نفسه كشخص "وطني" ، وهذا واضح بما فيه الكفاية، ولكنه كان يبقى على حذر فيما يخص إمكانية استقلال بولندا.

وجدت جيسي التجربة البولندية فوق قدرتها على الإدراك. لدى وصولها إلى كراكوف وجدت "تعبيد الطرقات بدائياً جداً، كما كانت رائحة الإسطبلات والمجاري الرديئة مما يجعل المرء يشعر بالغثيان. لاحظ كونراد تعبيري، فالتفت إليّ بحدة في الواقع وقال: "هذه ليست إنكلترا، لا تتوقعي الكثير يا عزيزتي." ستكتب جيسي لاحقاً أن الكثير من سلوك زوجها، والذي بدا لها في بداية الأمر غير ممكن فهمه، كان أمراً ممكناً تفسيره من خلال الميزات الوطنية للبولنديين.

اصطحب كونراد بوريس إلى "مكتبة ياغيلونيان" في كراكوف. وهناك عُرضت عليهما مخطوطات ورسائل والد كوانراد، وكان كونراد يعتقد أنها ضاعت جميعها. زارا قبر أبولو الذي يحمل تذكرة قاسية إذ كتب على شاهدة قبره: "ضحية الاستبداد الموسكوفي". هنا، وربما للمرة الوحيدة خلال حياة كونراد كشخص راشد، ركع ليصلي.

كمواطن بريطاني مجنّس، كان كونراد معرضاً للاعتقال من قبل السلطات النمساوية. كما كانت نقوده على وشك النفاد، وعاد مرض النقرس ينتابه في ذلك الوقت العصيب. قرر كونراد السفر إلى فيينا. وبعد رحلة مخيفة عبر البلد كادت تفقد جيسي صوابها من الخوف، وصلوا إلى فيينا في قطار مليء بالجنود الجرحى. ورغم أن المرض كان قد شلّ كونراد من الألم، إلا أنه كان حريصاً على مناقشة القضية البولندية مع أي شخص متاح ومستعد للاستماع.

من فيينا سافرت الأسرة إلى ميلانو ومنها إلى جنوى حيث كان متاحاً التفرج على المناظر الطبيعية، ومن جنوى وصلوا أخيراً إلى الوطن. في تلك الأثناء، كانت مدافع الحرب ما زالت تدوي.

وصلوا إلى لندن في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر). كان كونراد يفيض نشاطاً حول مخططات لجعل بريطانيا تنخرط في المسألة البولندية. بعد عامين، كتب "أرنولد بنيت" في مذكراته ببعض الحدة أن كونراد كان يريد من إنكلترا أن توجه الرأي العام بشكل إيجابي نحو النمسا. "كأنما كان هو قادراً على فعل ذلك".

نُشرت "نصر" بشكل مسلسل خلال شباط (فبراير) من عام (١٩١٥)، ثم ككتاب في الولايات المتحدة الأمريكية في الشهر التالي. وهذه الرواية غالباً ما يساء تقديرها: فكونراد يعود فيها إلى بيئته القديمة وموضوعاته القديمة، ولكنه يعالجها بأساليب جديدة تماماً.

الشخصية الرئيسية في الرواية "أكسل هايست" قد عزل نفسه على جزيرة من جزر الملايو، إذ كان ضحية لفلسفة أبيه الشكوكية وتأثيره الشكس: "لقد أدرك وسيلة المرور عبر الحياة دون أن يعاني، وتقريباً دون أن يكون له أي همّ في هذا العالم... حصين لأنه مراوغ."

ولسوء الحظ، يصبح هايست مشتبكاً بالحياة – "لقد أمسكت به من خناقه- وذلك حين ينخرط أولاً في مشروع تجاري يتعلق بالمضاربة ثم مع "لينا" التي ينقذها من فرقة جوالة كانت تجوب البرزخ لتسلية البحارة.

ما أن يعود بها هايست بسرعة إلى جزيرته السحرية لا يكون لديه ما يقوله لها. تجري مشاهد الحب العظيمة تحت نور القمر "الشرقي" لأن عقم هايست العاطفي يسبب جروحاً عميقة. حين تكون "لينا" مضطربة يكون رد فعل هايست هي الحيرة العاجزة: "لا أفهم حتى ما الذي فعلته أو لم أفعله حتى أكون قد أزعجتك إلى هذا الحد".

وأخيراً يغزو الجزيرة ثلاثة أشرار لإعادة "لينا" إلى "شومبرغ"، وهو صاحب الحانة الحريص على أن يصبح عشيقاً لها. وخلال النزاع الذي سيحصل تُقتل "لينا" وهي تحمي هايست من الموت. والاقتراح هنا أنها حين لم تتمكن من منح هايست الحب فقد أعطته الموت بدلاً عن ذلك. إن طبيعة نصرها تصبح موضع شك على نحو إضافي حين ينتحر هايست لأنه غير قادر على الحياة بعد التضحية التي قدمتها "لينا".

في الرواية يعالج كونراد العلاقات الجنسية برقة تذكرنا بهنري دجيمز في أجمل كتاباته. ولكن الحس الخانق بالكبت والتأملات الصارمة حول الوحدة هي كونرادية تماماً. ورغم الظروف الكئيبة، فإن القيمة الكمونية للحب الرومانسي لا توضع موضع شك قط. هذه الرواية مع رواية "حظ" يجب أن نصنفها على أنها واحدة من أكثر أعمال كونراد تفاؤلاً.

ربما أحس جمهور القراء بذلك: فقد بيع من الرواية رقم لا يصدق هو أحد عشر ألف نسخة في الأيام الثلاثة الأولى. كانت المراجعات النقدية إيجابية كلها: لاحظت صحيفة "ذا نيويورك تايمز" التيار السفلي الشكسبيري الذي يتدفق عبر جزء كبير من هذا العمل الأخير، فقالت إن هايست هو نوع من "هاملت الملايو". وصف "وولتر دو لا مار" الرواية في "ملحق التايمز الأدبي" بأنها "طبق صغير من حبات الألماس" ولكن بأسلوب متكلف بالأحرى.

صعب على كونراد أن يستطيب نصره. في محاولته الثانية نجح بوريس في امتحان القبول في جامعة شيفيلد، ولكنه لسوء الحظ قرر أن يتطوع في الجيش. وبمساعدة صديق كونراد القديم "كنينغهام غراهام" منح بوريس شهادة تعيين برتبة ضابط. كان في السابعة عشرة والنصف من العمر: في ٢٠ أيلول (سبتمبر) أصبح ملازماً ثانياً. وبعدها أرسل إلى الجبهة الغربية (فرنسا) حيث تعرّض للغازات السامة، كما أصيب بصدمة جراء قنبلة انفجرت إلى القرب منه، وأدخل إلى المستشفى.

في الأشهر الأولى من خدمة ابنه في الجيش كان صعباً على كونراد أن يستوعب ما يجري من حوله فعلاً. وشأن الكثير من الأبناء الذين كتبوا الرسائل إلى آبائهم، كان بوريس قادراً على المحافظة على موقف يتسم بخلو البال . وهذا ما كتبه كونراد إلى غولزويرذي بافتخار جلي:

«*يقود بوريس مفرزة متقدمة ويرى نقيبه مرة أو مرتين في الأسبوع فقط... يكتب رسائل صبيانية مرحة باللهجة نفسها التي يكتب بها مراسل وورسستر. نرسل له صندوقاً من الكعك والحلويات بين الحين والآخر. كأنما هو ما يزال في المدرسة*».

خلال الحرب كلها كان كونراد يعيش حياة صارمة شأن الجميع. وشأنه شأن الجميع كان وطنياً متحمساً. وهناك دليل قوي على ذلك هو رد فعله على محاكمة رفيقه سابقاً في الكونغو "روجر كايسمنت".

كان كايسمنت قد انضم إلى "الحركة الوطنية الأيرلندية". حاول أن يحشد الدعم لـــ "القضية" في أمريكا، وسافر بالتالي إلى ألمانيا في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام (١٩١٤). عندما اندلعت "ثورة عيد الفصح" عام (١٩١٦)، قام الألمان بإنزاله على الشاطئ الأيرلندي. وقد ألقي القبض عليه وحوكم وأدين بالخيانة في حزيران (يونيو) من عام (١٩١٦). وقد استأنف حكم الإعدام ولكن الاستئناف رفض وفي آب (أغسطس) تم إعدامه.

لم يكن كونراد غير متعاطف على نحو متصاب، ففي رسالة إلى عضو في "الحركة الوطنية الأيرلندية" الذي كان يحاول حشد الدعم لكايسمنت في الفترة ما بين القبض عليه وإعدامه، أعاد كونراد كتابة الماضي دون أي خفقة من خفقات الندم:

«*لم نتحدث بالسياسة قط. لم أعتقد أنه كان لديه حقاً... كان رفيقاً طيباً، ولكن سبق لي في أفريقيا أن حكمت بأنه كان رجلاً لا عقل له لو أردنا*

الصدق. لا أعني أنه كان غبياً، أعني أنه كان لا يحمل سوى العاطفة. كان يشق طريقه بالقوة العاطفية والمزاج المحض... كان شخصية تراجيدية فعلاً. إلا أنه كان يفتقر إلى العظمة التي لم يكن يتحلى بأي أثر منها. مجرد غرور. في الكونغو لم يكن ذلك مرئياً بعد».

رفض كونراد توقيع نداء معمّم للعفو وعبر أكثر من مرة عن كرهه الشديد لفرد أصبح مثالياً خطيراً (لأنه غبي).

جلب عام (١٩١٦) بعض الاهتمام لكونراد في الشكل الجميل لـــ "دجين أندرسون"، وهي صحفية أمريكية مولودة في أطلنطا كان لديها ميل شديد للكهول الأقوياء من الرجال. سرعان ما أصبحت على علاقة صداقة مع "هـــ. ج. ويلز"، وبما أنها معجبة بأعمال كونراد، فقد أملت أن يحتال لها ويلز بدعوة لزيارة "كابل هاوس". بعد جهد إضافي بسيط نجحت أخيراً، وكتبت مقالة حماسية عن أول لقاء به. من الواضح أنها وجدت كونراد جذاباً:

«إنها وضعية رأسه هي التي تعطينا الانطباع بالقوة. فمه، رغم أنه ليس محدداً بوضوح تحت الشارب الرمادي، إلا أنه ممتلئ وحساس. ولكن العينين هما عينا شخص عبقري. فهما داكنتان والجفنان متدليان باستثناء لحظات الاستثارة القوية. هما بنيتان داكنتان... وفيهما صفة عجيبة منومة مغناطيسياً».

كانت أندرسون تئزّ بحيوية جنسية. وقد شعر كونراد بوضوح بالإطراء من اهتمامها، كما أحبتها جيسي في البداية. حين كتب عنها كونراد ، نزع إلى استخدام سياق لغوي مختلف هو بصراحة غير كونرادي:

«تعرفنا على شابة جديدة. إنها من أريزونا (والغريب) أنها ذات عقل أوروبي. وهي تنشد أن نتبناها كابنة كبيرة لنا، وهي تنجح في ذلك إلى حد ما. باختصار هي مثيرة للإعجاب تماماً».

كانت تزورهم بانتظام وأحب جون صحبتها بقدر ما أحبها أبوه، وقد أطلق ذات مرة تعليقاً عن ساقيها. ومع مرور الوقت، ليس من الصعب أن نشك في أن جيسي بدأت تشكو. كانت جيسي بدينة ومعوقة بشكل خفيف: لعبت دجين أندرسون دور المغوية ذات الشعر الذي بلون اللهب على أكمل وجه، وإلى ما هو أبعد من ذلك. ورغم أن التفاصيل غامضة، إلا أنه من الواضح أن جيسي واجهت كونراد برسالة أرسلها هو إلى دجين، وأن كونراد كان محرجاً لأنه أُمسك به متلبساً. وبدون أن يتلفظ بأي كلمة، ألقى بالرسالة إلى النار.

من غير المحتمل أن يكون كونراد قد أقام علاقة غرامية مع أندرسون التي كانت في الثامنة والعشرين وهو في الثامنة والخمسين. كانت هي تفور بالجنس، وكان كونراد قليل الثقة بنفسه إلى حد عدواني كما كان النقرس قد شلّه. لا شك بوجود بعض الغزل من العيار الثقيل، ولكن مع تكتم كونراد بطبعه، فمن غير المحتمل أن يكون كونراد قد خان جيسي. أما كتاب السيرة الحريصين على افتراض هذه المسألة، فهم لا يقدرون القيمة التي يمنحها كونراد للإخلاص حق قدرها سواء كان للنساء أو السفن أو الفن. على أي حال، أقامت أندرسون علاقة مع صديق كونراد المدعو رتينغر وساعدت على تحطيم زواجه.

كان العمل الإبداعي الجدي الوحيد الذي أنجزه كونراد خلال سنوات الحرب هو الرواية القصيرة "خط الظل" التي أهداها إلى "بوريس مع الحب". وكما عاد في "نصر" إلى روايات فترة الملايو المبكرة، هاهو يعود إلى أسلوب "شباب" و"زنجي النارسيسوس". و"خط الظل" شبه سيرة ذاتية وعنوانها الثانوي هو "اعتراف"، وكانت آخر روائع كونراد والخاتمة الملائمة لحياة من الكدّ في البحر وخلف منضدة الكتابة.

تتقد الفقرة الافتتاحية بالحنين الذي يبهّره عدم وجود اللهجة الرسمية. هاهو كونراد الذي غالباً ما أحسن تنسيق نثره بأكثر الألوان توهجاً، يخاطب قارئه الآن دون رسميات متكلفة:

«*إن من هم في سن الشباب هم الذين يتمتعون بمثل هذه اللحظات. لا أعني أولئك الذين يتمتعون بمثل هذه اللحظات. لا أعني أولئك الذين هم في سن الشباب المبكر. كلا، فأولئك ليست لديهم لحظات لو توخينا ما هو صحيح. من مزايا الشباب المبكر العيش سلفاً في كل الاستمرارية الجميلة للأمل التي لا تعرف التأني أو الاستبطان*».

توحي البساطة المنجزة بأن كونراد، وهو يواجه شياطينه للمرة الأخيرة، قد خرج محطماً لكن منتصراً بخفة. لا حاجة الآن إلى الرواة المتعددين: فـ "أنا"ه تخاطبنا مباشرة، ونحن نفترض أن اسمها هو "كونراد."

في "ملاحظة المؤلف" يربط كونراد على نحو غير مباشر محاكمة ذاته "وهو شاب"، خلال اجتيازه خط الظل من الشباب إلى سن الرشد، مع المعاناة التي كان يتحملها جيل بوريس في الخنادق والأماكن الأخرى:

«*لا أحد يشك أنه قبل المحاكمة العليا لجيل بأكمله، كان لديّ وعي حاد بالصفة بالغة الدقة والتافهة لتجربتي المبهمة. لا مجال هنا لأي مقارنة. لم تخطر هذه الفكرة في ذهني أبداً. ولكن كان هناك شعور بالهوية*»...

تروي رواية "خط الظل" التجربة الأولى لكونراد في قيادة سفينة كربان. ورغم تأييده للفضائل البسيطة مثل الشجاعة والإخلاص، فالربان الجديد عليه أن يتعامل أيضاً مع الأزمة التي تجعله يعاني من إحساس مفرط وغالباً محيّر بالذنب رغم أنها ليست من صنعه. إن إدراك كونراد بأن الإثم يمكن أن يكون بلا جذور وأنه يجب تحمله على أي حال، يمنح هذه القصة حداً مفتقداً في قصص أخرى أكثر بساطة مثل "تايفون" و"شباب". في النهاية يثبت الربان

قدرته على القيادة، حيث يتصالح الراوي مع عيوبه النفسانية والأخلاقية خلال عملية نضجه:

«"ولكني سأقول لك يا كابتن جايلز كيف هو شعوري. أشعر أني عجوز. ولا بد أني كذلك. أنتم جميعاً على الشاطئ تبدون لي مجرد مجموعة من الشبان المتهكمين الذين لا همّ لهم في هذا العالم."

لم يبتسم. بدا عليه أنه مثالي على نحو لا يطاق. أعلن قائلاً:

"هذا سيمضي. ولكنك تبدو أكبر سناً... هذه حقيقة."

قلت له:"هاهه!"

"كلا، كلا! الحقيقة هي أن على المرء ألا يحمّل أي أمر الكثير في هذه الحياة، سواء كان جيداً أم سيئاً."

همهمت متشكياً: "العيش مستخدماً نصف السرعة. لا يستطيع كل شخص أن يفعل ذلك."»

أراد كونراد أن يساهم في الحرب، وبمساعدة الأدميرالية زار الموانئ البريطانية ليشاهد الأنشطة البحرية. وليس جلياً ما إذا كان ذلك لرفع معنويات البحارة أم معنويات كونراد؛ بل أنه استقل طائرة من "المحطة الجوية" في "يارموث"، وهذا أمر يدل على تهور كبير إذا ما أخذنا في الاعتبار سنه وحالته الصحية ومخاطر الطائرات الأولى. وقد تجنب إبلاغ جيسي عن هذه الحادثة بالذات.

راح يؤلف أكثر من عمل، وأملى "السهم الذهبي" بسرعة، وكانت هذه نوعاً من التكسب الأدبي للمال. ورغم أن كونراد ما كان قادراً على إعادة قراءتها إلا مع دمعة وشفة مرتجفة، إلا أنها لا تقدم للقارئ المعاصر الآن إلا القليل من المتع. وبالفعل فهي مجرد كليشيهات من البداية إلى النهاية؛ ولا شك أنها واحدة من أسوأ ما كتبه أي كاتب كبير. وبالمقارنة معها تبدو رواية "الأفعى المجنحة" لـــ "د. هـــ. لورنس" عملاً كبيراً ومضبوطاً.

تسترجع هذه الرواية مغامرات كونراد في مرسيليا، وتحكي بالتفصيل عن غرام "م. جورج" بـــ "ريتا لاستوالا" ذات الشخصية الغامضة. ويبدو غموضها مبالغاً فيه بلا هوادة حتى أنها نادراً ما تطمح إلى بعدين. يبدو نثر كونراد كأنما كتبه مؤلف كسول بقصد المحاكاة التهكمية:

«*السلالم البيضاء، اللون القرمزي الداكن للسجادة، والأزرق الفاتح للثوب، كل هذا خلق مجموعة مؤثرة من الألوان ليبرز اللون القرنفلي الرقيق للوجه الذي يجذب، بعد نظرة أولى للمرأة كلها، التحديقة نحوه بنوعية غير ممكن تحديدها من الفتنة تتحدى أي تحليل وتجعلك تفكر بأجناس قصية وأجيال غريبة، وبوجوه النساء المنحوتة على النصب الخالدة وتلك التي ثوت غير متغنى بها في قبورها*».

من الصعب تصديق أن كونراد قد أكمل كتابة "خط الظل" قبل أشهر قليلة من هذه الرواية.

ورغم أن كونراد شعر بالارتياح بعد توقيع هدنة الحرب، وخاصة أن بوريس خرج منها حياً، إلا أنه في يوم الهدنة نفسه كان في مأزق كأنه يوم القيامة:"لا يستطيع عقلي أن يجد الراحة. قوى عظيمة وعمياء قد انطلقت على نحو كارثي في كل أنحاء العالم..."

كان أسطع ضوء سياسي على الأفق هو منح بولندا الاستقلال، رغم أن كونراد تنمر على نحو لجوج من أن البلاشفة سيُمنحون صوتاً في "مؤتمر السلام".

تابعت جيسي معالجة ركبتها المصابة، مع انتقال الأسرة من "كابل هاوس" إلى "سبرينغ غروف" قرب "واي"، وأخيراً إلى "أوزوولد" خارج كانتربري مباشرة. وقد بقيت هناك حتى وفاة كونراد.

خلال عام (١٩١٩)، لم يستطع كونراد إنجاز أي عمل جديد، رغم أنه استطاع أخيراً إتمام "الإنقاذ" وهي قصة قديمة أعاد كتابتها بعد أن كانت تطهى

على نار خفيفة منذ تسعينيات القرن التاسع عشر. وفيها نرى كل الأدوات المعتادة عن الشرق البعيد الغريب: شخصيات محتالة من الملايو وراجوات (جمع راجا) نبلاء وأميرات بهيات ولص البحار "دامان" "بقلب مليء بالانتقام وعينين كعيني غزال".

ورغم أن كونراد كان تواقاً على الدوام إلى أن يعترف لأصدقائه بحالته الصحية الرديئة، إلا أنه منذ بداية عقد العشرينيات من القرن العشرين راح يشكو من أنه يشعر بأنه منهك تماماً. كتب إلى غولزويرذي قائلاً:"أنا الآن أقل عجزاً من الناحية الجسدية ولكني أشعر أني مزعزع ومنهك ذهنياً... وهناك القليل من الأسباب لهذا الإنهاك لو أردت الصدق..."

بدأ يعمل على كتابة روايته عن الفترة النابولونية وعنوانها "تشويق"، ولكن بدا أن عمله البحثي سيستغرق منه فترة حياة بكاملها مما كان سيطفئ قدرته الإبداعية.

كان يشعر كعادته بأن معنوياته ليست على ما يرام، فاقترح على جيسي أن يذهبا في إجازة. وقد يظن المرء أنهما قد تعلما الدرس. في هذه المرة اتجها إلى جزيرة كورسيكا، فغادرا في بداية عام (١٩٢١)، بحثاً عن "طقس جيد". وقد رافقهما آل بينكر، وهناك مكثوا في فندق "غران أوتيل" في "أجاسيو".

بالطبع كان الطقس رديئاً: "بارداً وماطراً. مرعباً!" كان كونراد في مزاج سيئ وبائساً، ورغم أن سكرتيرته انضمت إليه إلا أنه لم ينجز إلا القليل في كتابة الرواية النابولونية. كان يشعر أنه حتى الجبال كانت تضغط على أعصابه. في بداية شهر نيسان (أبريل)، عاد آل كونراد إلى الوطن.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

٨ – نحو الموت

(١٩٢١ - ١٩٢٤)

خلال ما تبقى من عام (١٩٢١) عمل كونراد على رواية "تشويق". في ٢١ كانون الأول (ديسمبر)، أبلغ بينكر أنه قد تمكن من كتابة (٥٥٠٠) كلمة في محاولة جديدة، وهي عبارة عن قصة قصيرة ستكون لها خلفية نابولونية. وقد تطورت هذه نحو رواية "الجوّال" آخر رواياته.

من بعض النواحي، فإن هذا الكتاب الذي يحكي ذكريات الفتوة للراشدين يشكل وداعاً خجولاً. إنه يحكي عن البحار "بيرول" الذي هو مستعد للقيام بمغامرة أخيرة من أجل الشرف وحب الوطن. نرى نثر كونراد مرة أخرى مشدوداً كما أن المناظر الطبيعية لمنطقة البروفنسال مرسومة بحدة:

«*كانت هناك أشجار صنوبر تميل على خط السماء، وفي الممر نفسه بقع خضراء فضية من بساتين الزيتون تحت جدار أصفر طويل ومن خلفه أشجار سرو داكنة اللون، والأسقف الحمراء لأبنية بدت كأنها تخص إحدى المزارع*».

يختلف هذا تماماً عن أوصاف روايات الملايو أو "قلب الظلام" فعلاً. لا يهدف كونراد إلى الوصول إلى أهمية ميتافيزيقية بل إلى التأثير البصري المباشر. لا يجب أن نندهش من أن إرنست همنغواي كان معجباً ومولعاً بكونراد: لقد تعلم الكثير من كونراد الأكثر حرصاً على الإيجاز في أيامه الأخيرة.

خلال عمله على الكتاب، علم كونراد بوفاة بينكر من ذات الرئة في سن الثامنة والخمسين. كوكيل لكونراد كان بينكر قد تحمل الكثير. كتب كونراد إلى

ابنه: "خلال عشرين سنة من الصداقة وضمن معظم هذه الفترة ، خلق التبادل المتواصل لأكثر الأفكار والمشاعر حميمية رابطة قوية شأن أكثر القرابات لحّاً."

في ربيع عام (١٩٢٣)، قام كونراد بآخر رحلاته الطويلة. فبدعوة من ناشره "فرانك دبلداي"، وافق كونراد على زيارة الولايات المتحدة الأمريكية ليقابل جمهوره المغرم به. في ٢١ نيسان (أبريل) أبحر على السفينة "توسكانيا" (حمولة ٢٦٠٠٠ طن). وجد كونراد الحياة على متن سفينة ركاب فخمة كريهة. كره "المحاولات الرامية إلى تقديم كل أنواع الراحة المزيفة، وجميع مساوئ الحياة الاجتماعية، مع وجود قلق إضافي يتمثل في عدم قدرته على تجنب ذلك كله."

كما لم يتمتع كثيراً بالوصول. كتب إلى الوطن بلهجة متفجرة :

«لن أحاول أن أصف لكم نزولي في الميناء لأنه أمر لا يمكن وصفه. أن يكون المرء مستهدفاً من أربعين كاميرا يحملها أربعون رجلاً يبدون كأنهم أتوا في أسراب، لهي تجربة تحطم الأعصاب...»

رفض كونراد رسمياً أن يلقي محاضرات، وربما لأنه كان يخجل من لكنته، وربما لأنه ظن أن محاضرته لن تكون ممتعة إلى حد كاف. ولكنه وافق على إجراء حوار وعلى أن يقرأ شيئاً من كتاباته، فقرأ الصفحات الأخيرة من رواية "نصر". ويعطي وصفه لجيسي عما جرى دليلاً حاسماً لو كان أي دليل مطلوب على ذلك، بأنها بقيت حب حياته رغم تشكيك أصدقائه وكتاب سيرته المستقبليين:

«بعد أن توقف تصفيق الجمهور الذي نهض واقفاً حين ظهرت له، مررت بلحظة من الألم الإيجابي. ثم أخرجت الساعة التي أهديتني إياها ووضعتها على المنضدة وبذلت جهداً جباراً وبدأت الكلام. كانت تلك الساعة أكبر مصدر للراحة بالنسبة إليّ. شيء منك».

شعر كونراد بأنه أُفرط في تفخيمه من قبل الأغنياء وأصحاب النفوذ. وما أن عاد إلى إنكلترا حتى أحس بإرهاق شديد.

كما كان غاضباً إلى حد كبير. فلدى عودته اكتشف أن بوريس قد تزوج من فتاة كان قد قابلها في فرنسا في مطعم للضباط. كانت جيسي قد قررت عدم إزعاج كونراد بالخبر حتى ينهي جولته في الولايات المتحدة. وكما هو متوقع، فقد غضب بشدة، هذا إن كنا نستطيع الوثوق برواية جيسي عما حدث:

«*قاطعني بتكلف بسيط :"لا أريد أن أعرف أي شيء عن ذلك. لقد جرى ما جرى وعوملت كأحمق ملوم..."*»

في أيار (مايو) من عام (١٩١٤)، عرض عليه رئيس الوزراء الاشتراكي رتبة فارس. وبما أنه أراد أن يقلد ما فعله غولزويرذي وكيبلينغ، أو أنه كان يعتقد أنه أرستقراطي بما فيه الكفاية، فقد رفض كونراد العرض.

لم يكن كونراد كارهاً للتكريم، خاصة إذا كان مرفقاً بمكافأة مالية، ولكنه كان يأمل إلى حد كبير أن ينال جائزة نوبل، خاصة مع نشره لرواية "الجوال". ولكن ذلك لم يحدث. وقد انضم إلى لائحة أولئك الذين لم ينالوا الجائزة والتي شملت: توماس هاردي ودجيمز جويس وفرجينيا وولف ود. هـ. لورنس ومارك توين وهنري دجيمز ومارسيل بروست وليف تولستوي.

كان كونراد يصارع الآن اعتلالاً مزمناً في صحته. حاول فورد التقارب معه وأمل أن يساهم كونراد في مجلته الجديدة. لم يشعر كونراد بالرغبة في ذلك، وكان قد تعب من فورد الذي راح هو يعتبره كشخص أناني ومتطلب. كان لديه من الغضب ما يكفي ليصفه بأنه "مخلوق متورم الرأس يبدو أنه يتخيل أنه سيجتاح أوروبا كلها ويدمر بريطانيا العظمى بطبعة نهائية لأعماله الكاملة.

تأتي أكثر الروايات حزناً عن الأشهر الأخيرة من حياة كونراد بقلم "دجاكوب إيستاين" الذي كُلّف بمهمة صنع تمثال نصفي له. وهذا التمثال النصفي تصوير قوي لرجل نظر إلى الحياة بتواز ، وشعر أنـــه لم يتأثر.

وجد إيستاين كونراد كسيحاً ومكتئباً ومرهقاً. كان يعبث بمخطوطة غير منتهية ألا وهي رواية "تشويق" آخر رواياته والتي بقيت ناقصة.

استمرت صحته في التدهور، اعترته نوبة قلبية خفيفة، ثم نوبات أخرى من المرض مع الحمى، ثم نوبة النقرس الحتمية. حكى لـــ "كيرل" أنه لن يحزن لو مات. كتب إلى صديق: "لم أكن في صحة جيدة منذ فترة طويلة، وأسر إليك بأنني أشعر كجرذ محاصر في زاوية".

في الأول من آب (أغسطس)، اصطحب كونراد كيرل ليرى منزلاً جديداً كان يأمل في استئجاره (هاهو ينقل مسكنه مجدداً)، وذلك حين أصيب بنوبة قلبية. في البداية شُخصت حالته على أنها سوء هضم، ثم اتضح في اليوم التالي أنه كان مريضاً جداً بالفعل. في مساء الثاني من آب (أغسطس)، همس لبوريس أنه يعرف أنه "في هذه المرة" مريض جداً. في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي، وكان يوم أحد، نادى على جيسي التي كانت في الغرفة المجاورة تتعافى من أحدى عملياتها الجراحية العديدة. سمعته زوجته وهو يصرخ "هنا" أو "أنت الذي هنا". سُمع صوت سقوط. كان قلب كونراد قد انهار وسقط هو على الأرض. توفي فجأة في الثالث من آب (أغسطس) وهو في سن السادسة والستين.

بغض النظر عن تلك اللحظة القصيرة عند قبر أبيه حين صلى تكريماً لمعتقدات أبيه، لم يبد كونراد أي اهتمام بالدين المسيحي أو بأشكال العبادة المتصلة به. "من الغريب كيف أني كنت دائماً، منذ سن الرابعة عشرة، أكره الدين المسيحي وتعاليمه وطقوسه واحتفالاته."

وعلى الرغم من ذلك، وشأن الكثير من الملحدين الصامتين فقد دفن على الطريقة المسيحية والكاثوليكية بالتحديد، كما شاءت جيسي التي لم تستطع حضور الجنازة بسبب إعاقتها. وقد جرت المراسم خلال احتفال مباريات الكريكيت في كانتربري: كان على المشاركين في الجنازة أن يبدوا

وقورين حسب المناسبة بين زحمة الأعلام والشرائط الملونة. بين المشاركين كان "إدوارد راشينسكي"، وهو الشخصية الرسمية الوحيدة، ممثلاً للحكومة البولندية. قال بحدة أحد المعجبين الفرنسيين بكونراد وكان غاضباً بسبب الفساد السائد بين البريطانيين: "لو مات أناتول فرانس، لخرجت باريس عن بكرة أبيها في جنازته." لا شك أن عمدة كانتربري عوّض عن الأمر حين وصف كونراد بأنه "رجل عظيم ذو عقل سام."

على شاهدة قبر كونراد كتب اسمه بطريقة لا هي بولندية ولا إنكليزية: "جوزيف تيودور كوجينوفسكي": وهذا رمز للتشوشات التي لاحقته طوال حياته. كما نقش على الشاهدة العبارة التي استخدمها هو في رواية "الجوال":

«*النوم بعد التعب، الميناء بعد البحار العاصفة،*

الراحة بعد الحرب، الموت بعد الحياة، كلها تبعث الكثير من السرور».

هذان البيتان من قصيدة "الملكة الجنية" للشاعر البريطاني "سبنسر": اليأس العظيم ينصح بالانتحار.

تابعت جيسي حياتها وهي تعاني من مراحل متنوعة من الوهن، وتتجادل مع بوريس، وترعى ميراث كونراد وتستمتع بشرب الشاي في مقهى "ذا كورزون". ورغم أنها كانت ذات شخصية مرنة إلى حد كبير، إلا أنها وصفت نفسها وهي في الستين من عمرها بأنها "امرأة وحيدة". توفيت في سن الثالثة والستين عام (١٩٣٦) ودفنت إلى جوار زوجها.

لدى مراجعة حياة كونراد، من الصعب فهم شخصيته المزاجية العصابية كما هي مع ألمعيته الجريئة. لم يكن يرحم نفسه كما كان يعامل الآخرين بقسوة. في رسائله يبدو كمزيج من الفنان المعذب والمشتكي الدائم، ولكنه كان قادراً على حس النكتة النافذ. تقريباً تحوي جميع رواياته لحظات من الهزل الضاري حيث تُرمى الرؤيا التهكمية بحدة شديدة على وضع معين، فلا يستطيع القارئ سوى الضحك دون مرح.

لا شك أن كونراد كان، حتى في شبابه، أخرق وحاد المزاج. ولخشيته من فوضاه الداخلية، اختار حياة البحار لتعطيه النظام الذي كان في حاجة إليه. وحين حلّ الملل اختار صرامة الفن الروائي، فمارس بتفان أشبه بتفاني النساك إبداع فن روائي لم يسبق له مثيل في الأدب الأنغلو- أمريكي. إن إخلاصه في العمل يجعل حتى هنري دجيمز يبدو كسولاً، كما أن جديته قد تجعل حتى دجيمز جويس يبدو كشبح. انتشل كونراد الرواية الإنكليزية من انشغالها البورجوازي بالحب والزواج والثروة. وشأنه شأن كيبلينغ، فقد ركز على علاقة الفرد بالعمل والواجب. وعلى العكس من كيبلينغ، كان هو مفتوناً بالخيانة وخيانة الذات. في "قلب الظلام" و "نوسترومو" أوضح بجلاء كاف أن المثاليات والمعتقدات لا تستطيع إنقاذ الفرد ولا المجتمع. المشاعر التي تتحكم بالبشر هي الأنانية والهوس بالذات وفوقهما كره مرضيّ للحقيقة.

ونتيجة لذلك، فحتى أكثرنا نزاهة يعاني من العزلة والوحدة. المجتمع تركيب يعرض علينا سلوان الأمان المزيف: ولا نشعر بأننا ناقصون إلا حين يجري امتحاننا، وسواء جرى هذا الامتحان في أدغال أفريقيا أو شوارع لندن، فهذا لا يهم حقاً.

يصرح كونراد لكنينغهام غراهام:

«*الأمور الغامضة في الكون مصنوعة من نقاط من النار وخثرات من الدم لا تهمنا إطلاقاً. لا يستحق مصير بشرية محكوم عليها في النهاية أن تفنى من البرد أن يزعج المرء نفسه به. ولو أخلصت له سيتحول إلى مأساة لا يمكن احتمالها. إذا آمنت بحصول تقدم عليك أن تبكي فالكمال المنجز يجب أن ينتهي في ظلمة باردة وصمت. ضمن نظرة محايدة فإن الحماسة للإصلاح والتقدم والفضيلة والمعرفة، وحتى الجمال، مجرد ادعاءات مزيفة كأن يكون الشخص حريصاً على تفصيلة ملابسه في مجتمع من العميان*».

٩ - حياته بعد موته

كان تأثير كونراد الأدبي شاملاً. ورغم أن عدد قرائه انخفض بعد وفاته، فقد بقي الكاتب رقم واحد بلا منازع بالنسبة إلى الكتّاب.

هاهو كبير الحداثيين "ت.س. إليوت" يحدد نمطاً من التقدير لكونراد، فيقتبس آخر كلمات "كورتس" كمقدمة لقصيدته "الرجال الجوف". كما أن الأمريكيين كانوا يبجلون كونراد على الدوام. لقد كان انطباعهم عنه أنه كاتب ذي صبغة عالمية وليس كاتباً بريطانياً. إن "غاتسبي" في رواية "غاتسبي العظيم" لسكوت فيتزجيرالد يبدو كابن عم دمث لكورتس، كما أن راوي الرواية (نيك) يشبه الراوي "مارلو" في روايات كونراد ولكنه أكثر رضا عن نفسه: حفلات غاتسبي هي إعادة تصوير في عشرينيات القرن العشرين لطقوس "قلب الظلام" التي تفوق الوصف. أعاد همنغواي تفسير تأكيد كونراد على تضامن البحارة محولاً إياه إلى شيء ما أكثر مبالغة وأكثر لاموثوقية على نحو متعمد. أما استخدام ويليام فوكنر لوجهات النظر المتعددة (أو الرواة المتعددين) والتلاعب بالمخططات الزمنية فيدين كثيراً لـــ "توسترومو" و "قلب الظلام".

لقد أعجب كاتبان مختلفان أشد الاختلاف شأن "أندريه جيد" و "توماس مان" بكونراد وتعلما منه. أعجب مان بـــ "موضوعيته الباردة"، بينما ساعد "جيد" على ترجمة أعمال عديدة إلى الفرنسية وأشرف على ترجمات في هذا المجال. كان مهتماً على وجه الخصوص برواية "لورد جيم". إن قفزة جيم[1]،

(١) يعني هنا قفزة لورد جيم من السفينة الآخذة بالغرق لينقذ نفسه تاركاً الحجاج المسلمين لمصيرهم المحتوم. (المترجم)

على نحو قابل للجدل، أول فعل وجودي لا يلهم "جيد" فحسب، بل شركاءه في هذا المجال: جان بول سارتر وألبير كامو.

في بريطانيا، كان تأثير أدب كونراد قوياً ونامياً. إن المشاهد الطبيعية والمدينية الرثة في أعمال "غراهام غرين" تبدأ في دكان "السيد فرلوك"[1] المريب. في عمله "قضية محترقة" يقدم غرين فروض الطاعة إلى كونراد على نحو مباشر، فهو يفتتحه بباخرة تمخر نهر الكونغو. أما رائعة "مالكولم لوري" المسماة "تحت البركان"، فلها الكثافة التطبيقية اللغوية التي لرواية "نوسترومو"، وتستعيد على نحو مشابه مشاهد طبيعية غريبة للتأكيد على فساد البشر. حتى "فرجينيا وولف" تبدو وكأنها تقر بتأثير كونراد في التزويقات الخطابية العالية لمقطع "الوقت يمر" من رواية "إلى المنارة" التي تشبه مقاطع من "شباب" كونراد مع تفاصيل دقيقة من أجل التوكيد المضاف.

أما فيما يخص الكتاب الأقرب إلى عصرنا، فإن "جون لو كاريه" و"ويليام غولدينغ" يدينون لكونراد. إن اهتمام لو كاريه بالخيانة والهوس بالذات يفوق حتى اهتمام غراهام غرين بهما، كما أن إيمانه بطبيعة "الاختبار" تربط شخصياته بشخصية "جيم" و"رازوموف" و"هايست". استكشاف غولدينغ للتضامن والعزلة والشر في "طقوس العبور" له سابقة في "زنجي النارسيسوس": إن موت كل من "دجيمز ويت" و"القس كولي" دون أن يبكيهما أحد في مقصورتيهما يحمل تشابهاً مبهماً.

الأدب الذي أتى بعد فترة الاستعمار فيه إلهام من كونراد وضيق به على حد سواء. تبقى رواية "قلب الظلام" نصاً مثيراً للجدل. فبالنسبة إلى "تشينوا أتشيبه" تمثل كل ما هو زائف عن الموقف الأوروبي من أفريقيا. أما بالنسبة إلى "ف.س. نايبول" فهي قد برهنت أنها نقطة انطلاق لواحدة من أجمل رواياته "منحنى في النهر". أما رواية الكاتب الكيني "نغوغي واثيونغو"

---

(١) من رواية "العميل السري" (المترجم).

المسماة "حبة قمح" فتنقل الوضع الوارد في "تحت أنظار غربية" إلى التاريخ الحديث للنضال الأفريقي في سبيل الاستقلال. هاهو الشخص المتوحد "مونغو"، الذي اعتُقد بأنه بطل، يخون "كيهيكا" ويسلمه للبريطانيين لينقذ نفسه.

إن قوة كونراد كروائي تكمن في أنه لا يمكن وضعه ضمن التراث الروائي الأنغلو – الأمريكي، رغم جهود "ف. ر. ليفيز" في الأربعينات من القرن العشرين. إن تشككه وسخريته القادحة وتصميمه على كشف عيوب الناس والأنظمة التي يبنونها لحماية أنفسهم، فريدة من نوعها. كتب عن نفسه يقول:

«*لقد دعيت بالكاتب البحري، وبكاتب المناطق الاستوائية، وبالكاتب الوصفي، وبالكاتب الرومانسي... وأيضاً بالكاتب الواقعي. ولكن الحقيقة هي أن كل اهتمامي كان منصباً على القيمة "المثالية" للأمور والأحداث والناس. هذا ولا أي شيء آخر*».

كان الدفاع عن كونراد هو التاريخ اللاحق للقرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. ما تزال "قلب الظلام" تلقي الضوء على أنظمة الرعب والبربرية التي ابتليت بها آخر مائة سنة من عصرنا. إن تحذيرات "توسترومو" بشأن السلطة التي لا ترحم التي تتمتع بها "المصالح المادية" ما تزال تُراعى في الشرق الأوسط، وعدم قدرة الدول "المتمدنة" على فهم الإرهاب العنيف أو محاربته بشكل فعال هو أكبر كشف لرواية "العميل السري".

لا يوجد كاتب واحد في العصور الحديثة يجمع مثل هذه الحدة والنفوذ. وكما أمل هو في "زنجي النارسيوس"، فإن أجمل وصاياه كانت:

«*إيقاف الأيدي المشغولة بالعمل في الأرض لبرهة، وإجبار الرجال المفتونين برؤية الأهداف البعيدة، على النظر للحظة إلى الرؤية المحيطة بهم من الشكل واللون، من نور الشمس والظلال...*»

كما أمل كونراد، فهو يجعلنا "نرى". ولسوء الحظ، فإن ما "نراه" لا يجلب أي سلوان أو راحة إلا نادراً: إنه يمنحنا لمحة عما سننساه بسرعة، وما ننساه على نحو يشكل خطراً علينا.

الهيئة العامة السورية للكتاب

١٠ - لائحة بأعمال كونراد حسب تسلسل نشرها

١٨٩٥ - "حماقة أولماير"

١٨٩٦ - "منفي الجزر"

١٨٩٧ - "زنجي النارسيسوس"

١٨٩٨ - "حكايا القلق" بما فيها قصة "العودة"

٩٩/١٨٩٨ - "قلب الظلام" (مسلسلة في بلاكوود)

١٩٠٠ - "لورد جيم"

١٩٠١ - "الورثة" (مع فورد مادوكس فورد)

١٩٠٢ - "شباب: حكاية وقصتان أخريان"

١٩٠٣ - "إعصار وقصص أخرى"

١٩٠٣ - "رومانس" (مع فورد مادوكس فورد)

١٩٠٤ - "نوسترزمز"

١٩٠٦ - "مرآة البحر" (مذكرات)

١٩٠٧ - "العميل السري"

١٩٠٨ - "مجموعة من ستة"

١٩١١ - "تحت أنظار غربية"

١٩١٢ - "سجل شخصي" (مذكرات)

١٩١٢ - "بين الأرض والبحر" (بما فيه "ابتسامة الحظ")

١٩١٣ - "حظ"

١٩١٥ - "نصر"

١٩١٥ - "ضمن التيارات"

١٩١٧ - "خط الظل"

١٩١٩ -"سهم الذهب"

١٩٢٠ - "الإنقاذ"

١٩٢١ - "ملاحظات عن الحياة ورسائل"

١٩٢٣ - "الجوال"

١٩٢٤ - "طبيعة الجريمة (مع فورد مادوكس فورد: نشر بعد الوفاة)

١٩٢٥ - "تشويق"

١٩٢٥ - "حكايات القيل والقال"

١٩٢٦ - "المقالات الأخيرة"

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفهرس

الصفحة

١ – بولندا ٥

٢ – فرنسا ١٣

٣ – إنكلترا والخدمة في البحرية التجارية ٢٣

٤ – الكاتب المتمرن ٣٥

٥ – الروائي المحترف ٤٥

٦ – المعلم ٧٥

٧ – كونراد فيما بعد ٩٥

٨ – نحو الموت ١١٣

٩ – حياته بعد ١١٩

١٠ – لائحة بأعمال كونراد حسب تسلسل نشرها ١٢٣

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

مؤلف هذا الكتاب

درس غافين غريفيث في مدرسة وستمنستر ويونيفرسيتي كوليدج في أوكسفورد. في أوكسفورد كانت الروائية "جورج إليوت" موضوعاً لأطروحته في الدراسات العليا. يدرّس الإنكليزية في "مدرسة كينغر كوليدج" في ويمبلدون ومدرسة وستمنستر، ويكتب مقالة أدبية أسبوعية لصحيفة "الإندبندنت". وهو متزوج وله ولدان...

الهيئة العامة السورية للكتاب

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الهيئة العامة السورية للكتاب

كلمة غلاف جوزيف كونراد

إن قوة كونراد كروائي تكمن في أنه لا يمكن وضعه ضمن التراث الروائي الأنغلو - الأمريكي، رغم جهود «ف. ر. ليفيز» في الأربعينات من القرن العشرين. إن تشككه وسخريته القادحة وتصميمه على كشف عيوب الناس والأنظمة التي يبنونها لحماية أنفسهم، فريدة من نوعها. كتب عن نفسه يقول:

«*لقد دعيت بالكاتب البحري، وبكاتب المناطق الاستوائية، وبالكاتب الوصفي، وبالكاتب الرومانسي... وأيضاً بالكاتب الواقعي. ولكن الحقيقة هي أن كل اهتمامي كان منصباً على القيمة "المثالية" للأمور والأحداث والناس. هذا ولا أي شيء آخر*».

كان الدفاع عن كونراد هو التاريخ اللاحق للقرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. ما تزال "قلب الظلام" تلقي الضوء على أنظمة الرعب والبربرية التي ابتليت بها آخر مائة سنة من عصرنا. إن تحذيرات "نوسترومو" بشأن السلطة التي لا ترحم التي تتمتع بها "المصالح المادية" ما تزال تُراعى في الشرق الأوسط، وعدم قدرة الدول «المتمدنة» على فهم الإرهاب العنيف أو محاربته بشكل فعال هو أكبر كشف لرواية «العميل السري».

لا يوجد كاتب واحد في العصور الحديثة يجمع مثل هذه الحدة والنفوذ. وكما أمل هو في «زنجي النارسيوس»، فإن أجمل وصاياه كانت:

«*إيقاف الأيدي المشغولة بالعمل في الأرض لبرهة، وإجبار الرجال المفتونين برؤية الأهداف البعيدة، على النظر للحظة إلى الرؤية المحيطة بهم من الشكل واللون، من نور الشمس والظلال...*».

كما أمل كونراد، فهو يجعلنا «نرى». ولسوء الحظ، فإن ما «نراه» لا يجلب أي سلوان أو راحة إلا نادراً: إنه يمنحنا لمحة عما سننساه بسرعة، وما ننساه على نحو يشكل خطراً علينا.

الهيئة العامة السورية للكتاب

إن قوة كونراد كروائي تكمن في أنه لا يمكن وضعه ضمن التراث الروائي الأنغلو – الأمريكي، رغم جهود «ف. ر. ليفيز» في الأربعينات من القرن العشرين. إن تشككه وسخريته القادحة وتصميمه على كشف عيوب الناس والأنظمة التي يبنونها لحماية أنفسهم، فريدة من نوعها. كتب عن نفسه يقول:

«لقد دعيت بالكاتب البحري، وبكاتب المناطق الاستوائية، وبالكاتب الوصفي، وبالكاتب الرومانسي... وأيضاً بالكاتب الواقعي. ولكن الحقيقة هي أن كل اهتمامي كان منصباً على القيمة «المثالية» للأمور والأحداث والناس. هذا ولا أي شيء آخر».

كان الدفاع عن كونراد هو التاريخ اللاحق للقرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. ما تزال «قلب الظلام» تلقي الضوء على أنظمة الرعب والبربرية التي ابتليت بها آخر مائة سنة من عصرنا. إن تحذيرات «نوسترومو» بشأن السلطة التي لا ترحم التي تتمتع بها «المصالح المادية» ما تزال تُراعى في الشرق الأوسط، وعدم قدرة الدول «المتمدنة» على فهم الإرهاب العنيف أو محاربته بشكل فعال هو أكبر كشف لرواية «العميل السري».

لا يوجد كاتب واحد في العصور الحديثة يجمع مثل هذه الحدة والنفوذ. وكما أمل هو في «زنجي النارسيوس»، فإن أجمل وصاياه كانت:

«إيقاف الأيدي المشغولة بالعمل في الأرض لبرهة، وإجبار الرجال المفتونين برؤية الأهداف البعيدة، على النظر للحظة إلى الرؤية المحيطة بهم من الشكل واللون، من نور الشمس والظلال...».

كما أمل كونراد، فهو يجعلنا «نرى». ولسوء الحظ، فإن ما «نراه» لا يجلب أي سلوان أو راحة إلا نادراً: إنه يمنحنا لمحة عما سننساه بسرعة، وما ننساه على نحو يشكل خطراً علينا.

جوزيف كونراد
سيرة موجزة

الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ١١٠ ل.س أو ما يعادلها